غزل أبي نواس

الدكتور علي شلق

دار بيروت
للطباعة والنشر

غزل أبي نواس

الدكتور علي شلق

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٤


مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رفع أ. علاء الدين شوقى أسكنه الله الفردوس

توطئة

ابو نواس احد كبار شعراء العربية في العصر العباسي ، إن لم يكن اعظمهم على الاطلاق ، حسب رأي الأستاذ « وليم مرسيه » مدعوماً برأي دائرة المعارف الاسلامية ، إذ قلّ ان نجد له نظيراً في تاريخ الأدب العربي من ناحية التعدّد المخصب في شخصه ، مما يجعله وجهاً حياً صادق الانطباع عن عصره ، يتنقل عبر الدهور ، في جو بغداد ، مدينة العالم الأولى في ذلك الحين ، التي استوعبت مدنيات اليونان، والرومان ، والبابليين ، والآشوريين ، ومصر ، وفينيقيا ، والهند ، والصين ، وفارس، ثم استوت تطلب من يتادى تعبيراً مستجيباً عنها في الفكر ، فكان ابو نواس ، ومن يستشرف آفاقها من اعلى الهرم الافلاطوني حاكماً واعياً ، فكان الرشيد ، كأنّ هؤلاء الثلاثة بغداد ، الرشيد ، النواسيّ متلازمون في الذهن ، متواعدون للقاء على وجهٍ ما في حقل الزمان ؛ بَيْدَ أنّ النواسيّ تمادى في التاريخ بوجهين ، الأول نلمحه مخطّطاً في أمهات كتب الأدب والتاريخ ؛ والثاني نداعبه في كتب الأحاديث ، والأقاصيص ، والفكاهات ، حيث يُقرن بالندامى ، وبجحا ، وبالخلعاء ، والشطّار .

هذان الوجهان أغرياني منـذ تدريسي تاريخ الأدب العربي في لبنان وسوريا أن اجلو تلك الملامح ، وأن اعرّف بجانبـه الوقور العميق ، وبالآخر المرح الممعن في حب الحيـاة امعاناً ترك افكاره « الوجودية » حارةً في مجرى العصور .

فمن اين ابدأ ؟ وقـد تهيّب كثير من الباحثين الخوض في ابي نواس لسببين ، الأول أنه عُرف بالمجون والانحراف، وهما كافيان في عرف المغلقين للانصراف عن البحث فيه ، والثاني أنّ شاعرنا جنى على نفسه ، وربما جنى عليه الزمان ، بدفعه في عصرٍ متنوع الاتجاهات ، متعـدد الملامح ، متوثب الأفكار ، تجاه حضارةٍ ربما كانت اغرب حضارات التاريخ ، واكثرها روافد. فثار ، واطمأنّ ، وآمن ، وجحـد ، وقلق ، وسكن . وبين هذه الحالات ضاع واضطرب كثيرٌ من عطائـه ، فأصبح من الصعب ردّ الشارد الى أصوله ، والمنحول الى منبعه .

بيـد أننا عملاً بمنطق الواقع الذي يجعل معيار الشاعر الحق في شاعريته ، غزله ، اقتحمنا هذه الحواجز المرصودة، منصرفين عن طردياته ، واماديحه واهاجيه ، مستعينين بخمرياته وزهدياته، لأن الشاعر الحق هنا ، فيما فعلناه ، مستمدين من التاريخ عبرةً وقوةً تعيننا على اعلان الفكرة الخالصة ؛ فقد كان بودلير لسنين خلت لعيناً في عرف التقاليد ، فاذا به اليوم شاعر التوبـــة ، شاعر المسيحيـة حيث عبقت من « ازهار الشر » انفاس القلب البشري اللاهب ، الذي جنى من الخطيئة انبل ثمار الصراحـة

والحقيقة البشرية .

هنا ، من الذي يتردد عند قراءة زهديات ابي نواس في أن يعلن : « إنه شاعر الندامـة في الاسلام » ، وان يحكم لشاعرنا بالتمادي البعيد في آفاق الانسانية التي قلّ ان جاراه في مشارفها شاعرٌ في تاريخ العرب .

*

خيل اليّ وانا ادرس ابا نواس ، أنني لم اتعرف اليـــه قبلًا ، وانّ هذه الصراحة ، وتلك العذوبـة ، وذلك التهاون الساخر بتقاليد النـاس ، لا تتصل الا بشخص عظيم نادر بين العظماء .

غير أنّ ديوانه (يا للأسف) غير موجود بكامله ، يزاد على هـذا كثرة المنحول ، والممسوخ ، والمختلس ؛ وليس غير المجموعة التي اخرجها « اسكندر آصاف » مجموعة تحمل على شيء من الاطمئنان ؛ يضاف اليهـــا ما وجدناه في أمهات كتب الأدب العربي القديمة ، والتي هي موضع احترامنـا في اغلب الأحيان .

هذه الدراسة هي موجز اطروحةٍ نوقشت في جامعة باريس ، حذفنا منها المراجع ، وبعض الصفحات ، والملخص ، وعـــدة موضوعات تنتسب الى الاطار العام الذي عاش في ظله الشاعر ،

وبعضها خاصٌ بالنقد وقد كنت حريصاً على اظهاره لولا مخافة التطويل .

وقد كانت رغبتي متجهة الى دراسة موضوع آخر غير هذا ، الا ان مساعد استاذنا ليفي بروفنسال ، حملني على طرق هـذا الباب لانه يعمل في حقله منذ سنوات ، واعتقد ان هذه الدراسة ستجلو كثيراً من الضباب ، كما ستحقق غير وهم واحـد بصدد ابي نواس ، ولا اعدو الصواب اذا قلت : إنها حتى هذه الساعة لا تزال تقف وحدها .

المؤلف



غزل ابي نواس

الشعر كائنٌ حيٌ ، يتمثل في صعوده ، وهبوطه ، وامتداده ، تمثُّلَ الفرد ، وتقويمُه ، أنّه أثمنُ عطـاءٍ بشريٍّ ، يعبّر عن حضارةٍ من الحضارات ، اذ أنّ الحضارة هي مجهود الرّوح في سبيل البقاء .

ليس الشعر محصول العقل ، او العاطفة ، او الخيـال ، او الموسيقية بخصوصها، بل هو هذه الاشياء ، ومعها صدى الانسانية في مراحلها الماضية المختلفة ، وشيء آخر من الغد البعيد .

لذلك اخترت لدراستي شاعراً ، هذا الشاعر لم اقف به عند العصر الجاهلي او الاسلامي او بعد العباسيّ، بل انتقيته من شعراء عصر القمة في تاريخ العرب ، وبصورة أدقّ لم اتناوله من ناحية مدائحه ، او اهاجيه ، او طردياته ، او خمرياته ، او زهدياته ، بل تشبّثتُ بغزله على اختلاف نواحيـه ، لا لأنّ الغزل هو عنوان الشعر الحقّ ، بل لأنه اخطر ما عند هذا الشاعر ، وهذا الخطر يكشف لنا عن نفسيةٍ خاصةٍ عنـــد أبي نواس هي التي نحاول أن نتعرف اليهـا ، إذ ليس شعر النواسي بخصوصه عبارة عن التغني بالجمال ، ومطارحـة الجواري او الغلمان الهـوى ،

هو شيء من هذا ، وباطنه حياة أمةٍ ، وحقيقة عصر ، وتصوير نفسٍ ممتازةٍ بتعدد احاسيسها ، وتجاربها العقلية ، قالت به ، ما لا يمكن للفلسفة او العلم ان يقولاه .

فكما تعطي العمارة فكرة المهندس ، والقضية المنطقية حكم العالم ، هكذا يفيدنا شعر النواسي عن نفسه ، وعهده ، وامته ، ويعطينا منهاجاً ملتمعاً عن دوافع إنسانية حرة ، ومحبة للحياة حارّة ، وعبادة للجمال تتبعه كيف كان .

ابو نواس وحده غريبٌ في تاريخ الشعر العربي وتطوره ، حياته وشعره متلازمان ، لم يكن كالعتاهي في ضآلة شخصه ، وتذبذب روحه ، ولا كالسيد الحميري ، او مروان بن ابي حفصة ، يغنّيان بشعرهما المدائح لانسانٍ من البشر لا يكادان يتعديانه ، ولا كالعباس بن الاحنف حصر وجوده في « فوز » وانهارت نفسه على اقدامها وعميَ عن جمال الحياة في ارجائها البعيدة .

ولكنه كما كان ينادم الرشيد والأمين وعظماء عصره ، كان يعاشر الشطّار، والخمارين ، والنصارى ، واليهود ، والمجوس، ينفتل من اجواء المترفين والمثرين الى اوساط الشعب من سوقةٍ ، وجوارٍ ، وغلمان ، وشذاذ ، وكان المال يتدفق عليه فيحيا ساعاتٍ حياة الاكتفاء الى ان يعضّه الحرمان وتنهشه الفاقة ، فهل في تاريخ الشعر العربي واحدٌ مثله عاش للحياة طلقاً ، على تنوعها ، وخصبها ، لهذا الذي نسميه «الشعب» وكدنا نعبده في

حضارتنا المعاصرة ؟

هنا لا أنسى عروة بن الورد في الفته الصعاليك ، وبديع الزمان والحريري في تصوير حال المُكدين من عامة الناس ، والف ليلة وليلة في تعرضها لأجواء الحياة الشعبية ، والجاحظ في حديثه الممتع عن بعض نواحي الشعب الحية ، ولكن كل هؤلاء لم يعيشوها مكتملةً بفنٍّ كأبي نواس ، ولم تظهر شخصياتهم مهيمنةً كما ظهرت شخصيته .

إنه لمن الخطإ الواضح قول بعضهم إن ابا نواس لم يعرف غير الطبقة العليا « ذروة الهرم » فهذا شعر الرجل شاهد على مراحل حياته ، وغزله هو المعتبر في التمييز والطرافة لا خمريّاته ، اذ انه سبق بخمريين كثيرين ولكنه لم يسبق بشاعر واحد لامع عني بالجمال المطلق عنايته الملحوظة .

حتى إنّ الذين عاشوا معه في عصره ، منهم من لم يجرؤ على الجهر بمكنونات شعوره كما فعل ، او انهم أعلنوا ولكنهم لم يتخذوا من عبادة الجمال ، بل من حرية القول ، فنّاً مستقلاً مستوفى . سجن ابو نواس ، وشُرّد الى مصر، وذاق الحرمان ، كل ذلك في سبيل ان يعيش حياته بحريّة ، هـذه الحريّة التي ننشدها في اصفى واسمى صعودنا البشري على الاطلاق ، والتي هي ارقى مطلع تحدونا اليه الحضارات .

مناحي الغزل عند ابي نواس

بعد هـذا يمكنني أن أقسّم غزل أبي نواس الى **نسائي** ، **وغلامي** ، **ونساء غلاميات** ، **وغلمان متأنثين** ، **وغزل خمري** ، **وغزل تقليدي** ، وهو يتوزع على قصائده التي بدأها بالغزل على الطريقة القديمة ، وعلى خمرياته التي تلازم الغزل ، والغزل يلازمها ، وعلى قصائده في الجواري مستقلةً ، وقصائده في الغلمان على حدة ، ولا ريب ان المتتبّع لهذا الشعر يجد فيه المنحول ، والمدخول ، ولكن لا يصعب عليـه أن يجد ابا نواس على كل حال .

على أنّ اكثر المضطرب في هذه الناحية ما جاء في خمرياته وغزله ، لموافقتهما هوى الناس ، في ان يزيدوا عليه ما دار في خواطرهم ، ولأن شخص النواسيّ بهذا الخصوص أصبح رمزاً ، أصبح فكرة .

لكني – وهذا رأيٌ يبدو غريباً – اميل الى اخذ كل ما يروى عن ابي نواس لأنه يعطينـا صورةً عن فهم الناس له على اختلاف عصورهم ، وندرك كيف قلّدوه ومثّلوه ، بل ربما جاء هذا الخليط شرحاً لانسان ابي نواس الكامل . اما من جهة التاريخ وتحقيقاته ، فلا شك في أنّ ما له يجب أن يميّز مما لغيره .

الغزل النسائي النواسي

المرأةُ اساس كل موضوع غزليّ ، اذ هي مقصد الرغبة الطبيعية في الانسان ، فكل ما ينشأ بعدئذٍ من انحرافٍ او شذوذ ، فانما نشأ عنها نفسها ، مثل عسر الوصول اليها ، والاخفاق في كسبها ، او عدم توفر عناصر الحب عند الرجل ، او عندها ، يضاف الى ذلك عاملٌ اجتماعيٌ ملحوظ .

فالحبّ العذري ، فالأفلاطوني ، فالصوفي ، فالغلاميّ ، كله منبعثٌ عن ذات المرأة ، الى مدار الانحرافات الأخرى ؛ والغزل عند أبي نواس ، بدأ طبيعيّاً بخصوص عاطفة الحبّ التي تتجه باعتدالٍ الى المرأة، لأن تعلّقه بالرجال من الجهتين الجنسيتين، الرجال الذين أفسدوه وهو فتى ، لم يكن ليتمكن منه في تلك السنّ المبكرة ، تمكّناً يفسدُ طبيعته الجنسية ، فيحوّلها .

شبه المجمع عليه أنّ عشقه لجنان جارية عبد الوهاب الثقفيّ كان عشقاً عنيفاً ، لم يجرّب مثله في مراحل حياته الأخرى ، إذ انه حب الشباب الباكر . في هذا الوقت كانت جنان نفسها تدلّنا على سنّ الشاعر عندما نعتته بالفتى ، لذلك لا نعدو الواقع اذا قلنا إن جنان هي المرأة في حياة شاعرنا التي عنها

انبعثت بعض مشاكله الجنسية والمذهبيّة كما يبدو بالاضافة الى مؤثرات البيئة وغيرها، ولنا ان نحدد هذا العشق قبل سن الثلاثين وحول العشرين ، لانه قصد بغداد في سن الثلاثين مخلفاً جنان في « حكمان » ، ثم ان كثرة ما قال فيها من الشعر ، يحتمل أن يكون محصول عدة سنين ، بيد أنّ التاريخ لا يعرض لهذا ويتركنا للاستخلاص التقديري .

*

المرجّح أنّه أخفق في حبّ جنان ، وان عطفها عليه لم يكن تامّاً يشبع نهم الشاعر العاشق ، ذلك راجع الى ما يشاع عنه من تخنثٍ ، والى حبّه للغلمان ، وإلى ما عرف عنها من انحرافها الى حب النساء من جنسها ، حسب رواية ابن منظور .
بعد هذا يجدر بنا أن نتساءل من هي جنان وما مقدارها ؟

جنان

حدث الأغاني « أن جنان كانت جارية آل عبد الوهاب الثقفيّ المحدّث ، وكانت حلوةً جميلة المنظر ، أديبة ، ويقال إنّ ابا نواس لم يصدق في حبه امرأةً غيرها . »

وروى ابن منظور انها « كانت حلوة ، جميلة المنظر ، بديعة الحسن ، أديبة ، ظريفة ، عاقلة ، تعرف الأخبار ، وتروي الأشعار، وكانت مقدودة ، حسنة القوام ، ويقال إن أبا نواس لم يصدق في حب امرأةٍ غيرها . »

ومن دلائل هذا الحبّ العنيف انه يراها في كل حال مظهراً للجمال التّامّ ، حتى في المأتم، فهي فيه معنىً من معاني العرس:

« يا منسي المأتم أشجانه لمّا أتاهم في المعزّينا
سرتْ قناع الوشي عن صورةٍ ألبسها الله التّحاسينا
فاستفتنتهنّ بتمثالها فهنّ للتكليف يبكينا
حقٌ لذاك الوجه ان يزدهي عن حزنه من بات محزونا »

المرحلة الثانية من مراحل هذا الحبّ الذي بدأ إعجاباً ،

أنّه خرج على حيّز التعرّض لها في طريقها ، فاغلظت له القول ، فأرسل اليها يعتذر ، فقالت للرسول أن يبلّغه : « لا برح الهجران ربعك ، ولا بلغت املك من احبتك » فرجع الرسول ولم يخبره بواقع الحال ، لكنه ادرك بفراسته الحقيقة فقال :

« فديتكِ فيم عتبك من كلام | نطقت به على وجهٍ جميل
وقولك للرسول عليك غيري | فليس الى التواصل من سبيل
فقد جاء الرسول له انكسار | وحال ما عليها من قبول
ولو ردّت جنان ردّ خير | تبين ذاك في وجه الرسول »

في هذه القطعة والتي قبلها ، سهولة ظاهرة ، وتأليف من شاعريةٍ ناشئةٍ ، نلاحظ لذلك خطابه بلغة المذكر « يا منسي المأتم » في البيت الأول ، و « اتاهم » وقوله « سرتْ قناع الوشي » في البيت الثاني بخطاب المؤنث ، على أن المعنى في القطعتين عاديٌ لطيف .

ومن جملة ما عاتبها به حتى استمالها قوله فيها :

علقتُ من لو أتى على انْفُس الماضين والغابرين ما ندما
لو نظرت عينه الى حجر ولّد فيه فتورها سقما

المرحلة الثالثة أنّها بدأت تشعر نحوه بشيء من الهفّ ، حدث الجمّاز قال : « كنت عند ابي نواسٍ جالساً ، اذ مرت

بنا امرأة ممن يداخل الثقفيّين، فسألها عن جنان، وألحفها في المسألة واستقصى ، فقالت : « سمعتها تقول لصاحبتها من غير أن تعلم انني اسمعها : « ويحك قد آذاني هـذا **الفتى** وأبرمني ، واحرج صدري ، وضيّق عليّ الطُّرُق بحدّة نظره وتهتّكه ، فقـد لهج قلبي بذكره ، والفكر فيه من كثرة فعله لذلك ، حتى رحمته . »
فلما ذهبت المرأة انشأ يقول :

يا ذا الذي عن جنـان ظلّ يخبرنا
بالله قـل وأعـــد يا طيّب الخبر

قال : اشتكتك وقالت ما ابتليتُ به
اراه من حيثما أقبلتُ في اثري

ويعمـل الطرف نحوي إن مررت بـه
حتى يخجّلني من حـدّة النظر

وإن وقفتُ اه كـــيما يكلمني
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصَر

مـا زال يفعل بي هـذا ويدمنه
حتى لقد صار من همّي ومن وطري »

تحدثنا هذه الابيات بتصوير صادقٍ كمشهد السينما ، عن حال المحب الناشيء وكيف يندفع بطيشٍ وفضول وراء المحبوب ،

وتلعثمه في الكلام عند المقابلة ، كذلك العذري الذي « يُبهت حتى لا يكاد يُجيبُ » اذا رأى حبيبته وجهاً لوجه وكان قبلًا يفكر في معسول الكلام ليزفّه الى سمعها .

المرحلة الرابعة مرحلة الهجران بعد الصداقة ، اذ بعثت اليه تقول : « لقد شهّرتني فاقطع زيارتك عني اياماً لتنقطع القالة . »

هذا لا يقوله محب صادق ، على انها كانت تواعده الى اللقاء فتخلف الوعد معه ، فيتحرّق شوقاً اليها ويقول مثل قوله الآتي :

« جفنُ عينيّ كاد يسقط من طول ما اختلجْ

خبريني فدتك نفسي واهلي متى الفرجْ

كان ميعادنا خروج « زيادٍ » وقد خرجْ

أنت من قتل عائذيك في اضيق الحرجْ »

زياد هذا كما يقول ابن منظور (ص ١٨٤) ابن عبد الوهاب الثقفي الذي كان يتعشق « بانة » امرأة ابيه وان « عبد المجيد » حبيب بن مناذر كان **منها** لشبهه به من حيث الجمال ، على أنّ الاغاني يذكر أن محمداً ، اكبر اولاد الثقفيّ ، هو الذي كان يعشق « بانة » .

هنا ، نزل ابو نواس عند رغبتها وقطع زيارتها ، ولكن

قلبه لم ينقطع عن ذكرها .

☆

الظّاهر أنّ هذه المرحلة كانت اخطر مراحل الشاعر الغرامية ، واكثرها تعقيداً ، فقد بلغه انها شتمته مرةً فقال في ذلك :

وا بأبي مَن اذا ذُكرتُ له وطول وجدي به تَنَقَّصني
لو سألوه عن **وجه حجته** في سَبّه لي لقال يَعْشقني
نعم الى الحشر والتناد نعم أعشقه او ألفّ في كفني
اصبح جهراً لا استسرّ به عنّفني فيه من يعنفني
يا معشر الناس فاسمعوه وعوا إن «جناناً» صديقة «الحسن»

هذه الأبيات تظهر لنا **اولا** سبّه لما يشاع عنه من الشذوذ ، ذكر ابن منظور ان مولاتها أحبّت أن تهبه جنان ، فلما كلمتها بذلك اشترطت عليها أن لا يلوط ، فلم تستطع مولاتها أن تضمن هذا الشرط .

ثانياً استعانته بأسلوب المتكلّمين والجدليّين في شعره« عن وجه حجته » .

ثالثاً هذا الظرف الذي يبرر عشقه العنيف بصياحه عالياً أنه يجب الافتضاح في حبها ، وان يشركها معه في ذلك .

هذه الابيات يرويها الديوان في « عنان » ، واذاعرفنا انها لم

تكن من المترصّنات كجنان وانها كانت افجر وافحش من أن تخشى التشهير ، يرجح اذن انها في جنان حسب رواية ابن منظور ، وكثيراً ما يشتبه شعره فيهما لقربهما في الوزن والحروف .

ولمّا بلغها ذلك منه زادت في هجره ، فرآها في المنام أنها تصالحه فكتب اليها :

« اذا التقى في النوم طيفانا عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العين ، فما بالنا نشقى ويلتذّ خيالانا ؟
لو شئتِ اذ احسنت لي في الكرى أتممت احسانك يقظانا »

الاحلامُ – في الغالب – صدى تفكير الانسان في اليقظة ، فهي لذلك حديث ضميره وباطنه ، على انه تمادى في استرضائها ، وتمادت في امتناعها ، الى أن تقابلا صدفةً في ديار الثقفيين ، فجبهته بما كره ، وآلمته ، ثم ندمت على شدّتها عليه بعد ذلك فأرسلت اليه رسولاً تصالحه ، فردّه ، ولم يصالحها ، فرآها في النوم على تلك الحالة فقال :

« دسّت له طيفها كيما تصالحه
في النوم حين تأبّى الصلح يقظانا

فلم يجد عند طيفي طيفها فرجاً
ولا رثى لتشكّيه ولا لانا

حسبت أنّ خيالي لا يكون لما
اكون من اجلـه غضبان غضبانـا

« جنان » لا تسأليني الصلح سرعةَ ذا
فلم يكن هيّناً منك الذي كانا »

في هذه المرحلة يظهر ان الشاعر لم يفقد كرامته في حبـه ، فكما هجرته وامتنعت عليه ، يمتنع عليها أيضاً فتُقبل لمراضاته ، فيشتد في انصرافه ، طاوياً نفسه على حبهـا الذي لم ينقص في حقيقته .

الطريفُ في موضوع الحلم النواسيّ ، أنّـه يجعل **لطيفه** شخصيةً مستقلةً واعيةً ، تستطيع ان تبرم الصلح او تنقضـه دون استشارة وعيه ، وأنه يقيم محاورةً بينـه وبين جنان في الحلم ، كما لو كانا في اليقظة ؛ فجعله اللاواعية مدركة ، دلالةٌ على تفكير خاصٍّ لم نلاحظه عند غيره من الشعراء[1] .

هاتان القصيدتان « النونيتان » ذكرهمـا الديوان في غير جنان بخلاف ابن منظور والأغاني ج ١٨ .

---

١ شهر من المسلمين بعد عصر النواسي من عني بتفسير الاحلام «كابن سيرين» معتمدين على القرآن والحديث في تفسير رموز الأحلام، وعلى شيء من دراسة المزاج الانساني ، على أنّ من اشهر من درس موضوعـات الأحلام في المعاصرين « السر اوليفر لودج » في كتابه « على حافة العالم الأثيري » طبع في القاهرة وترجم الى العربية .

المرحلة الخامسة يظهر انهما تراضيا ، ولكن الشاعر مُنيَ بتحمّلها الى « حَكَمان » مع ذويها ، وحكمان هذه « ضيعة » « لأبي عثمان » اخي مولاها ، مشتركةً بينه وبين ابن عمه « أبي ميّة » ، وهنا تطول غربتها على الشاعر ، وهو لا يستطيع الشخوص اليها ، بدليل تعنيف مولاهـا وتهديده ابا نواس « عنّفني فيه من يعنفني » (ابن منظور ص ١٩٢) .

فاكتفى بالشعر ينفّس به عن صدره ، والعمل الشعريّ ، ككلّ صارفٍ ذهنيٍّ ، يخفف من حدة الأشواق ، على ان ابن منظور يروي أن أصل تعرفه بها كان في متنزّهٍ مع أهلها ، فلاحظها[1] ، ونحن لا ندري مقدار صحة هذه الرواية ، اذ ما هي تلك الرابطة التي تجمع شاعراً خليعاً بمحدثين محافظين وفقهاء كآل الثقفيّ ؟ وما علاقته بابن مناذر صديقهم الا بعد ان فسق ابن مناذر لموت حبيبه عبد المجيد .

ذكر الاغاني و « ابن منظور » أنّ ناساً كانوا يتناشدون قول ابي نواس الآتي :

« أَسألُ القادمَيْن من « حكمان »
كيف خلفتما « ابا عثمان »

١ ابن منظور ص ١٧٨ وتارة اخرى يروي ابن منظور أنه تبعها دون ان يعرف من تساكن ومن هي ؟ ص ١٧٩ ابن منظور .

و « أبا ميّـة » المهذب والماجد
والمرتجى لريب الزمـان

فيقولان لي : جنانٌ كما سرّك
في حالهـا فسل عن « جنان »

مـا لهم ؟ لا يبارك الله فيهم
كيف لم يُغن عنـدهم كتماني »

وكان الى جانب المتناشدين شيخٌ يصغي الى حديثهم وهو يضحك . ولمّا سألوه عن سبب ضحكه ، اجاب انـــه هو « ابو عثمان » نفسه ، وجنان مولاة اخيه ، ولم تكن في موضع عشقٍ ولا عِشْرة ، ولا كان مذهب ابي نواسٍ النساء ولكنه عبثٌ خرج منه .

يُحمل كلام ابي عثمان محمل دفاع الرجل المحافظ عن نسائه وسُمعتـه ، إذ انّ عمل الحبّ لا يحتمل الصدق والكذب في الحكم ، بل هو ثابتٌ بالطبيعة ، وفي شعر ابي نواس بالواقع ؛ والظاهر أن مقامها في « حكمان » لم يكن للفسحة ، بل هرباً من الشاعر وتعرّضه ، قام به ذووها المتحرجون ؛ وهنا يشتد شوقه اليها ، ويكثر الحديث والسؤال عنها :

اما يفنى حديثك عن جنان ولا تبقي على هذا اللّسان
اكلَّ الدهر ، قلت لها وقالت فكم هذا ؟ اما هذا بفان ؟
الخ ...

ولما صار الى بغداد كتب يتشوّق إليها :

« كفى حَزَناً أن لا أرى وجه حيلةٍ
ازور به الأحباب في « حكمان »

وأقسم لولا ان تنال معاشرٌ
« جناناً » بما لا اشتهي لجنان

لأصبحتُ منها دانيَ الدار لاصقاً
ولكنّ ما اخشى – فُديتَ – عداني

فواحَزَنا ، حُزناً يؤدي الى الردى
فاصبح مأثوراً بكل لسان

أراني انْقَضَت ايام وصلي منكمُ
وآذن فيكم بالوداع زماني »

اذن فقد ثبت من شعره أنّ انتقالها الى حكمان كان هروباً بها من ابي نواس بعد أن هدّده أهلها « لولا ان تنال معاشر ..» فالمعاشر ذووها لا شك ، ولا يُستبعد بعد هذا أن يكون بُعد جنان عن البصرة مما حمله على قصـــد بغداد ، ولتغيير موطن الحبيب تخفيف على المحبّ ، خاصةً اذا علمنا أنّه ملّ المكث الى جانب العباس زوج أمه ، فتركها غير نادم هاجيـاً البصرة واهلها والعباس معها .

حجه مع جنان

لم ينقطع أبو نواس عن ذكرها وهو في بغداد ، لعمق أثرها في نفسه . روى ابن منظور أنــــه تحدث عن ذلك فقال : « وخرجتُ الى بغداد وفي نفسي بقايا من حبها ، مـا فارقتني ولا تفارقني إلا مع خروج روحي . »

هذا البعد الذي ارغم العاشقين أن ينفصلا ، حملهـا على أن تبتغي الحيلة ، في ساعةٍ من ساعات حنينها اليـه ، فتخبره أنها ستحجّ مع ذويها ، فعزم غريقُ لذّات بغداد على الحج ليراها ، وسجّل لنا ذلك في شعره :

« ألم ترَ أنني افنيت عمري بمطلبها ، ومطلبهـا عسيرُ
فلمّا لم أجـد سبباً اليها يقربني واعيتني الأمور
حججتُ وقلتُ قد حجّت جنانٌ ليجمعني واياهـا المسيرُ »

هذه الأبيات تظهرنا على تعلق الشاعر بجنان، وأنه لم يواصلها، وان حبها له كان حبّ المرأة لنفسها ، حبها أن ترى من يكلف بها ، ويتبعها ، اكثر من شغفها به لنفسه ، مع انها لم تخلُ أحياناً من شيء من الهفّ اليه .

ثم إنّ حجّ النواسي هذه المرة حجٌ مسرحيٌ ، دَرَجَ عليه غيرُ واحدٍ من افراد غصابة السّوء ، عشرائه .

حكى « سليمان بن نوبخت » قال : « خرجت للحجّ واستصحبتُ أبا نواس بعد امتناعٍ منه ونفار[1] وشرط عليّ ان اتقدّم معه الحاجّ الى « القادسية » فنقيم نشرب « بطيرناباذ » فنزل على خمّارٍ كان يألفه اسمه « سرجس » فشرب يومه وليلته ثم انتبه يقول :

وخمارٍ انخت عليه ليلًا   قلائص قد ونين من السفار

فلم يزل كذلك حتى ورد علينا اوائل الحُجّاج عائدين ، فرحلنا معهم الى بغداد ، على أننا كنا حججنا معهم[2] .

مثل هذا الحج المسرحيّ يروى عن مطيع بن إياس ويحيى ابن زياد ، اذ خرجا حاجّين من بغداد ، فلما وصلا الى « دير زراره » مالا ليستوفيا من حاناته ومُرْده ، فامتد بهما المقام حتى قفل الحجيجُ، فحلقا رأسيهما ، وركبا بعيرين ، ودخلا مع الداخلين كأنهما قد حجّا ، وفي ذلك يقول مطيع :

---

١ لأنه يقول في ديوانه ص ٢٧٢ :

« وقائل هل تريد الحج قلت له   نعم اذا فنيت لذات بغـداذ
فكيف بالحج لي ما دمت منغمساً   في بيت قوادةٍ او بيت نباذ
وهبك من قصف بغدادٍ تخلّصني   كيف التخلّص لي من طيرناباذ»

هذا دليل على انه دُعي للحج غير مرة تكفيراً عن ذنوبه فكان يرفض ، ولكن جنان راسلته بذلك فاستجاب ، ومن الثابت انه حج مرة اخرى مع الفضل بن الربيع .

٢ ألحان الحان ص ٤١ .

ألم ترني ويحيى إذْ حججنــا وكان الحجّ من خير التجاره
خرجنا طالبَي خيرٍ ودينٍ فمال بنا الطريقُ الى «زراره»
فآب الناس قد غنموا وحجّوا وأُبنا موقرين من الخساره[1] »

أبو نواس ذو احساسٍ غريب ، زئبقي ، ينتقل من حالة الى حالةٍ حسْب الجوّ، فهو في مطاف الكعبة ، ينغمر في جوه الدينيّ الخالص ، فينسى كل شيء الا صفاء الابتهال الى الله فيأخـذ في التلبية ، والناس يرددون معه :

إلهنـــا ما اعدلكْ لبّيك قد لبّيتُ لكْ
لبيك إنّ الحمد لكْ الخ .

لأبي نواس في جنان ما يقرب من خمسين مقطوعـــة بين القصيرة والطويلة ، وليس لغيرها في شعره ما لها ، عرضها الديوان في باب غزل المؤنث وغيره من كتب الأدب والرواية .

يتفاوتُ غزله فيها بين اعتدال العاطفة ، وجموحها ، وبين **تأليهها** أحياناً ، أو **العبث** في غزله بشكل مضحك .

فهو تارة يشبهها بغزالةٍ ، لكنها مقنعـــةٌ ترعى ثمر القلوب دون تكلف :

« مقنعةٌ بثوب الحسن ، ترعى بغير تكلفٍ ثـَمَر القلوب »

---

١ الحان الحان ص ٤٢ .

واخرى يجعلها رمز الحُسْن المتجدد الباقي :

« وذات خدٍّ مورّدْ فتّانـــة المتجرّدْ
تأمّل الناس فيهـا محاسناً ليس تَنْفَـدْ
الحسنُ في كل جُزْءٍ منهـا معادٌ مردّدْ
فبعضـه في انتهـاءٍ وبعضـه يتولّدْ »

ومن اغرب غزله فيها ، هذا الغزل الحسابيّ ، الذي يظهر لنا تمكّنه من هذا العلم ، كما يظهر تظرّفـــه المضحك في مثل هذا الشعر :

« جنانٌ حصّلت قلبي فما إن فيه من باقِ
لهـا الثلثان من قلبي وثلثا ثلثِـه الباقي
وثُلثا ثلثِ ما يبقى وثلثُ الثلثِ للساقي
فتبقى اسهم ستٌ تجزّا بين عشّاق »

واحياناً يخلع عليها رداء الألوهة :

« بكمال صورتكِ التي في مثلها يتحيّر التشبيه والتمثيلُ »

وانتهى امره معها أنّ اسيادهـا باعوها لرجل قدم البصرة فارتحل بها ، ولما بلغ ذلك ابا نواس قال :

« امَّا الديار فقلّ ما لبثوا بها
بين اشتياق العيس والركبان

وضعوا سياط الشوق فوق رؤوسها
حتى طلعن بهم على الأوطان »

●

مع « عنان »

هذه « عنان » جارية الناطفي ، قينةٌ اخرى عشقها ابو نواس ، عشقاً يختلف كثيراً عن عشقه « جَنان » نظراً لاختلاف جوّه النفسي إزاءها ، ولتطوّر سنّـه ، ولفرقٍ ظاهرٍ بين نفسيّتي تينك الجاريتين .

« عنان » امرأةٌ عاشت للفنّ ، شأن الكثيرات من هواة الفنون في عصرنا ، لا ضير عليهنّ من التبذّل ، والانطلاق بعد كل حدّ ، فاذا كانت رابطةُ الحبّ العنيف جمعت بينـه وبين « جنان » وهو شاب طريّ العود ، جذبته اليهـا اشياء أخرى تستهوي شاعراً مثله ، غير جمالها ، كونُها راوية للشعر والاخبار ، فإن « عنان » تفوق جَنان علماً ، وادباً ، وحريّةً ، وشخصيّتها الفنيّة أنْمى بكثيرٍ من شخصيّـة جَنان ، وامّا في الشعر فهل عرفت العربيةُ مبادهاً أو مبادهةً يتفوقان عليها ؟

انها اعجوبةٌ في هذا المضمار !!!

إلى ذلك فهي تعيش حياة منطلقةً ملحوظة ، وتظهر بين افراد عصابة السوء ، الذين هم من عنوانات النباهة والمواهب في هـذا العصر ، ظهوراً بيّناً مرموقاً ، ليس لهـــا تكبّر « جنان »

غرورها ، وهي اقرب الى اخلاق فحول الرجال منهـا الى اخلاق النساء ، غير أنّ المؤسف ضياع شعرهـا شأن كثير من الشعر العربيّ ؛ لهذه الكفاءة ، ضمّها الرشيـد الى نسائه كما سنروي ، ولِما ذكرنا نجد أنه ينـدر أن نجد قريعاً لها في الشاعرات .

روى العقـــد الفريد « أنّ الرشيـد غُنّي في ليلةٍ سامرةٍ شعر جرير :

« إنّ الذين غدوا بلبّك غادروا وشلًا بعينك ما يزال معينا »

فطرب الرشيد أيّما طرب وقال لجلسائه : « من يجيز هذه الأبيات ؟ وله هذه البدرة من الدنانير » ، فقال من حَضَرَ قولاً لم يصنعوا فيـــه شيئاً ، فتقدم خادم على رأس الرشيد قائلًا « أنا بها » فاحتمل البدرة ثم جاء عنان فأكتبته :

« هيّجت بالقول الذي قد قلتَه
داء بقلبي ما يزال كمينـــا

قـد أينعت ثمراته في طينها
وسُقين من ماء الهوى فروينـا

كذب الذين تقوّلوا يا سيّدي
إنّ القلوب اذا هوين ، هوينـا »

فلما وصلت الأبيات الى الرشيد قال : خلعتُ الخلافة من عنقي إن باتت إلاّ عندي . وبعث فاشتراهـــا بثلاثين الف دينار . »

والظاهر أنّ الرشيد كان شديد التعلّق بها . قال الأصمعي « ما رأيت الرشيد متبذّلاً قط مثلما رأيته وقد كتبت اليه عنان رقعةً فيها هذه الأبيات :

« كنتُ في ظلّ نعمــةٍ بهواكا
آمنــاً منك لا اخاف جَفاكا

فسعى بيْننــا الوشاةُ فأقررتَ
عيونَ الوشاة بي فهناكا

ولعمري ، لغير ذا كان أَولى
بك في الحقّ يا جُعلت فداكا »

فأخذ الرشيد الرقعة وعنده جماعة من الأدباء قالوا ابياتاً على رويّ ابيات عنان ووزنها فلم يفلحوا الى ان قال الرشيد :

« قــد تمنيتُ أن يغشّيني الله نعاساً لعلّ عيني تراكا »

غير أن ابن منظور يروي أنّ الرشيد ردّها الى سيدها لتعلقه بها واغلائه ثمنها .

قال ابن منظور : وكانت عنان جارية الناطفيّ لا تبالي م

قالت ، فوقع بينها وبين أبي نواس شرٌّ ، فدسّت اليـه سفهاء الكرخ ، والعيارين ليصيحوا به اذا ما صادفوه :

« أبو نواس اليمانيْ وأُمّـــه جلبان
والنفل افطن شيء الى حروف المعاني »

كذا هي في ابن منظور « النّفل » ولا معنى لهـا الا ان تكون **النّغْل** بالغين بدل الفاء ، على أن ابن منظور نفسه يرويها ص ٣٣ — ٣٤ « والناسُ افطن شيء » بدل والنفل ، وينسبها لأبان ، وكان الفضل بن الربيع ، واسماعيل بن صبيح كاتب الأمين ، يعملان للإيقاع بينهما طلباً للّهو ، على أنّ لها مساجلاتٍ مع النواسيّ نعرض عن ذكرها لخروجها على المألوف، عرض لها ابن منظور ، ومن اطيب مساجلاتها مع النواسيّ حسب رواية الديوان ما يلي ، ويرويها العقد الفريد بينها وبين الباهلي .

قال النواسيّ أجيزي :

هذي عنان اسبلت دمعها كالدرّ اذ ينسلّ من خيطه

فأجابت وكان سيدها قد ضربها :

فليت من يضربها ظالماً تجفّ كفّاه على سوطه

فقال :

فمازال يشكو الحب حتى حسبته تنفّس في احشائـــه فتكلما

فاجابت بعد اطراقٍ قليل :

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه   اذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

ثم قال اجيزي :

بديع حسنٍ بديع صَدّ   جعلت خدّي له ملاذا

فأردفت :

فعاتبوه ، فعنّفوهُ   فأوعدوهُ فكان ماذا ؟

أرجّح أن المساجلة جرت بينها وبين النواسيّ لقوة الشاعرية معنىً واسلوباً في الأبيات المعروضة على عنان لتجيزها .

ذكر الوشاء : أنّ عنان جارية الناطفيّ كتبت على منديل وجّهت به الى ابي نواس وكانت تحبّه :

« أما يُحسنُ من أحسَنَ   أن يغضبَ ، أن يرضى

أمـا يرضى بأن صرتُ   على الأرض له أرضا ؟ »

في هذين البيتين أثرٌ ظاهرٌ للصنعة البديعيّة التي اولع بها مسلم بن الوليد ، والنواسيُّ أحياناً ، فالمقابلة بين **يغضب ويرضى** ، والجناس بين **يرضى وارضا** ، وهما رغم الصنعة خاليان من الضعف الملحوظ في شعر النساء عادةً ؛ كما يسجّلان ميلها نحوه ذلك الميل المؤسس على تقدير ادبي وتجانسٍ فنيّ .

*

ومن أخبارها مع ابي نواس ما رواه ابن منظور قال :

دخل ابو نواس يوماً الى دار الناطفيّ ، والمجلس حافل بين
عامقٍ محبّ ، وناظر متعجّب ، ومستفيد متعلّم . فقال لعنان :
اجيبي عن هذا البيت :

رأيت نجوم الليل لاحت كأنها من الذهب العقيان احمر خالصُ

فقالت عنان :

تشبّهتها ليلًا مصابيح راهبٍ عليه ثيابٌ باليات قوالصُ

فقال ابو نواس :

واني لأهوى من حبيب احبّه مداعبةً منه واهوى المداعقه

فقالت عنان :

اجرعه ريقي واشرب ريقه فما تنقضي مني ومنه المزاعقه

في البيتين الأولين تناسبٌ تام في **الصورة والمعنى** على ان
بيت « عنان » اقوى من بيت ابي نواس ، مع أنها لم تروِّ فيه ،
بل قالته على البديهة ، وهو اكثر تنوّعاً . فهي لم تنسَ أن
تنقل لنا صورة الليل ولونه ، الى جانب صورة النجوم ولونها ،
وتمكّنت الصورة التشبيهيّة ، بالراهب البالي الثياب ، ومصابيحه
المشرقة ؛ على طريقة التشبيه التمثيلي المركب ؛ وهذا دليل على
خصب قريحتها .

واجتمع مرة اقطاب عصابة السوء وهم الواسطيّ ،

والخليع ، والرّقاشي ، والورّاق ، والخياط ، والقراطيسي
ورزين الكاتب ، وعنان ، وابو نواس ، ثم مضوا ا
الكرخ ، فتذاكروا ضروب الأدب ، واقترحوا ان يصير
الى من يقول احسن الشعر في دعوتهم اليه ، فأنشدوا جميعاً
على اختلافهم في الفحش ، والاعتدال ، والذي يهمنا من كل ها
قولُ عنان :

مهلًا افدّيك مهلا	عنانُ أحرى واولى
بأن يُنال لديها	أشهى النعيم واحلى
فانّ عندي حراماً	من الشراب وحلاّ
لا تطمعوا في سوائي	من البريّةِ كُلاّ
يا إخوتي خبّروني	أجاز حكميَ أم لا ؟

ذكرتُ قطعة عنان كاملةً متجاوزاً عن قول الباقين، لاتصا
بموضوعنا ولأنها جاءت افضل منهم في حلاوة التعابير ، ولطف
الوزن ، وحسن البناء ، لولا ما في تعليق الجار والمجرور
اول البيت الثاني بما قبله .

مثل هذا المجلس يدلنا على أنّ افراد عصابة السوء
المستهترين كانوا يعيشون في حياة تشبه الاشتراكية، تجمع بين
الخمرة ، ومحبة اللهو ، كما جمعت الحرية الفكرية
اخوان الصفاء .

ومن بديع رسائل النواسي الى عنان ، تلك التي يظهر فيها تاجنه وظرفه إذ يطلب منها ان لا تأمن على سرّها وسرّه الا القرطاس ، او طائر الهدهـــد ، الذي همّ سليمان بذبحه لولا أنه كان قوّاداً جمعه ببلقيس .

وقعت تلك الرسالة الشعريّة التي تتألف من ثلاثة ابيات في يد صديقه مسلم بن الوليد فشقّها ، فلما بلغ ذلك أبا نواس بعث اليه بقصيدة فحواها «أنّ الذي يقوى على تخريق رسالتي لهو قاسي القلب كالصخرة ، وأنّ الرسائل عزيزة عليه كأنها عينـــاه او رأسه ، ولولا الرسائل لمات العاشقون ، وأنت يا احمق الناس كيف غفلت عن أنّ كاتب الرسالة صديقك الذي أجرى فيهـا أنامله ، وقلمه المحبّر ؟ »

*

عرضتُ في هذه الترجمة الوافية الى قصة النواسيّ مع امرأتين ، إحداهما كانت موضوع حبّه الفتيّ الشاب في البصرة ، والثانية كانت موضوع حبه الأدبي في بغداد ، اقصد به ، ذلك الاستلطاف الشعوريّ ، والجاذب الفكري ، والتقدير الفنيّ . اما الناحيـة الجنسية بالنسبة الى هاتين الجاريتين فهي تختلف قوةً وضعفـاً ، فهو إزاء جنان عاشق ملهوف حاد العاطفة ، وهـو ازاء الثانية صديق ، الأولى عروس شعره ، عرشهـا في قلبه ، والثانيةُ رفيقةٌ محببة ، عرشها في ذهنه .

●

النواسي والجواري الاخريات

ذكرت كتبُ الأدب أسماء الكثيرات ممن تعرّض لهنّ النّواسيّ بالحبّ ، وكلهنّ من الجواري الاإماء ، ليس فيهنّ حرة واحدة ، وأكثرهنّ عذّبْنَهُ وصددن عنه ، لذلك كثرت الشكوى في شعره حتى حقّ لنا أن نسميه شاعر « الهجران » . وسأعرض في مبحثٍ خاص عن أدب الجواري الى هذه الظاهرة .

سمجه

من هؤلاء الجواري « سَمْجَه » التي يقول فيها :

« لو ظفرت كفّي بها مَرّةً   أكلتُ في سبعةِ أمعاء
وُلدتُ في حبك يا منيتي   بطالعٍ ليس بمعطاء

غريبٌ امر هذه الحاسّة المتعدّدة الجوانب عند ابي نواس ، انها حاسّة معقدة الشهوة ، سباعيّةُ الأداة ، فاذا عشق جنان بقلبه ، وعنان بفكره ، فانه يعشق هذه بمعدته ، عشقاً حيوانياً خالصاً ، وذلك دليلٌ على قيمتها ، فهي تكاد تكون جسداً فقط .

وفي البيت الثاني إشارة الى تعاطيه علم النجوم ، وربط مصير الانسان بأحد الأفلاك .

غير أنّ له قطعةً أخرى جيدة البناء ، فيها أثرٌ من الصنعة البديعية كالطباق ، ولكنه فيها ضئيل العاطفة :

«غصصتُ منك، بما لا يدفعُ الماء   وصح هجرك حتى ما به داء»

الخ ...

وله فيها قصيدة بائية عرضها الديوان يذكر فيها كيف كان قلبه خالياً ، فامتلأ بحبها ، وأنّ ذلك مقدّرٌ عليه في الكتاب ، بما يشير الى « جبريّته » كما يستدل منها أن سمجه صغيرة السن ولكنها رائعة الجمال :

أشاعها في شعاب جسمي   طرفي من طفلة كعاب

رغم صغرها ، فقد استطاع أن يستميلها إليه ، لولا أنه ووجىء باحد أقربائها يفرق بينهما ، فحمل عليه ابو نواس ، حتى أفسد ما بينه وبين اهله :

كأنه وسطهم غريبٌ   لم يك منهم بذي انتساب

غير ان مقامها يرتفع عن ان تكون غرضاً شهوياً فقط ، اصبح يحبها بقلبه بدل بطنه :

ويدخل حبُّها من كل قلب   مداخلَ لا يغلغلها المدامُ

دنانير

« هي مولاة يحيى بن خالد البرمكيّ ، وكانت من احسن

النساء وجهاً ، واظرفهنّ ، وأكملهن ، وأحسنهنّ ادبا ، وا كثرهن
روايةً للشعر والغناء ، وكان الرشيد متعلقاً بها ، ولكنها كانت
مثلًا في الوفاء لسيّدها البرمكي . » تطلّع اليها النواسيّ لجمالها
وفنّها ، فماذا كان حظه منها ؟

لندعه يحدثنا بشعره عن هذا الحظّ :

لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في   وصلي مشيت بلا شكٍّ على الما

يشبهها بالمسيح تشبيهاً معلقاً على زهدها في الدنيا ، بمقدار
زهدها في وصله ، غير أنه في قصيدةٍ اخرى يحدثنا عن ظفره بها

يا معشر العشاق ما البشرى   قد ظفرت كفي بمن اهوى
واصلني من بعدكم احبّتي   كذاك أيضاً لكم العقبى
ضممتُ كفيّ على درّةٍ   لا شركة فيها ولا دعوى
لما تملأت سروراً بها   أغربتُ عني سائر الدنيا

هذه الأبيات تخالف الواقع ، لما فيها من ضعف البناء
وفساد المعنى ، إذ أنّ « البشرى » تكون من الآخرين له
لا منه لهم ، ثم كيف يضمُّ كفيه على درةٍ هي من مخزون
يحيى البرمكيّ وهو سيّد ذلك الزمان ؟ إلاّ اذا كان ذلك
تصوّراً في الحلم .

حسن

« طفلةٌ خودٌ رداح   هام قلبي بهواها

قدّها احسن قدٍّ   فاسألوا من قد رآها

ما براها الله إلا   فتنةً حين براها

تنثر الدرّ اذا   غنّت علينا شفتاها

وترى للعود زهواً   حين تحويه يداها

ربما أغضيتُ عنها   بصري خوف سناها

هي همي ومنائي   ليتني كنت مناها »

هذه الأبياتُ تُظهرُ لنا « حُسْنَ » صغيرة السنّ ، مغنيةً بارعة ، وعازفة متقنة ، وهي كسائر الجواري يحبها ولا تحبه ، يتقرب اليها بقصيدةٍ أُخرى يتلاعب فيها بلفظ اسمها ومقابلته باسمه لذلك تلزم الصداقة بتقارب الاسمين بين المسمَّيَيْن :

« غير أنّي سميُّ وجهك
لم أحرمهُ في اللفظ والهجا والكتابه»

قال : « إنّ اسم حسنٍ لوجهها صفةٌ
لم أر هذا في غيرها اجتمعا

فهي اذا سُمّيت فقد وُصِفتْ
فيجمع اللفظ معنيين معا »

وهي على حداثة سنها طويلة فارعة ، وهو يعشق الطويلات :

طويلة خوط المتن عند قيامها ولي بالطويلات المتون ولو

ثم هو لم يظفر منها بغير أن يتمنّاها :

سأثني بهـذا مـا حييتُ عـلى المنى
وإن اغفل العشاق ذاك وضيّعوا

وقد يقارن بين فعلها ووجهها فيقول :

« لو كان فعلكِ مثلَ وجهك لم يكن
عني اليـك شفاعـةٌ لا تُشْفَـعُ »

عريب

« كانت عريب مغنّيـة محسنة ، وشاعرة صالحـة الشّعر مليحة الخط ، والمذهب بالكلام ، على جانب عظيم من الجمال والظّـرف ، واجادة الضرب والنغم ، والمعرفة بالأدب ، لاعبة بالنرد والشطرنج ، قيل إنها بنت جعفر بن يحيى البرمكي ، وانها نهبت بعد نكبة البرامكة وهي صغيرة . »

على ان الصوليّ في كتابه « اشعار اولاد الخلفاء » يذكر انها من جاريةٍ كان اشتراها جعفر في أخريات ايامه .

تحقيقاً لهذه النسبة ، نجد أنّ نكبـة البرامكة كانت سنة ١٨٧ هـ وكان موت النواسي على ابعد مداه سنـة ١٩٩ . وبين النكبـة والوفاة ما يقرب من اثنتي عشرة سنة ، فلنفرض أن

كلمة « أخريات » تعني ولادتها قبل ذلك بعام او عامين على الأكثر ، فهل من المعقول أن يتغزّل النواسي وهو متقدم في السن بفتاةٍ قاصرة صغيرة ؟

المسألة لا تخرج عن احد امرين : إما أنّ تغزّل النواسيّ بها غير واقع، او أنه عرفها وتغزّل بها وهي في سنٍّ تسمح بذلك.

على أنّ ما جاء في ديوانه كهذا البيت :

« اسعديني على الزمان عريب   انما يسعد الغريب الغريبا »

فيه اشارةٌ الى هذه الالفة الحاصلة من اثنين جمعت بينهما الوحشة ، هي بنكبة ذويها ، وهو بحاله اليائسة .

وقال فيها وقد سمحت له بقبلة ، وامتنعت عن الأخرى ، ضمّن قوله مثلًا فارسيّاً :

« فابتسمت ثم ارسلت مثلًا   يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطينّ الصبيّ واحدةً   يطلبُ أُخرى باعنف الطلب »

فهل من المعقول أن تنعت عريب رجلًا كأبي نواس بالصبي؟ أم أنّ ذلك لمشابهة الحالة وتطبيق المثل ؟

ثم ان له فيها قولاً آخر هو :

« فان كان الصواب لديك هجري   فعمّاك الإله عن الصواب »

في هذا البيت تجافٍ عن الذّوق ، وملاطفة المحبوب ، ا
لا يصحّ بحال أن ينسب اليه العمى . وله فيها قطع أخرى مُتهافتة
ليست شيئاً .

*

في حياة ابي نواس جوارٍ أخريات ، له فيهنّ قطع شعريّة
تختلف قوةً وضعفاً ، منهنّ عبده ، ورحمه ، وقاتل
ومكنون ، ونبات ، ومنى ، ومغريه ، وغيرهنّ ممن لم تظهر
اسماؤهنّ جليّة ، او ضاعت اخبارهن الحقيقية ، وفي الديوان
بباب غزل المؤنث طرف من شعره في بعضهن .

قال في عبده :

« سأشكر للذكرى صنيعتها عندي
وتمثيلها لي من احبّ على البُعد

يقرّبه التذكار حتى كأنني
أعاينُه في كلّ احواله عندي

فقد كادت الذكرى تكون كأنها
مشاهدةً لولا التوحش للفقد

تمثل لي ان لا اقول على النوى
فيا ليت شعري ما الذي احدثت بعدي

لأني وان كانت من الناس واثقٌ
لنفسيَ منها بالدوام على العهد »

لا أكاد افرقُ بين هذه القطعة الرائعة ، في استيفائها المعنى ، لطف عرضها ، والتتبّع الفكري فيها ، وبين طريقة ابن الرومي ، ع انه يفضل ابن الرومي بالسبق ، وتمهيده له هذه الطريق . سلوبٌ واضحٌ كأسلوب الكتّاب ، وانسياق فكري بديع ، ذكرنا بعذوبة « الاستحضار » عند الصوفية ، الى شيء من لتشاؤم يُلمح في البيت الأخير « وان كانت من الناس »

والنواسيّ قويّ « الاستحضار » يمتاز بتحليل دقيق للنفس ، ن ذلك قوله في جنان :

ويُدمن اللحظات في كأسه   كأنّ من يهواه في كأسه

وله في اخرى :

فكلما جاءني الرسول لها   رددت شوقاً في طرفه بصري

هذا ما لم نعرفه في شعر العرب قبلًا ، بل هو من ابتداع النواسيّ ، الذي يظهر انّه كان قويّ التصور للشيء فيعرضه مامك فاذا بك في مثل حالة الشاعر نفسها .

قال يصف العاشق المهجور :

« تناومْتُ جهدي فلم أرقدِ   ونام الخليّ ولم يسهدِ

أقلّب طرفاً قليل اللحاظ وإن قرّ عن جسدٍ مقصدِ
وانهض في طرباتٍ تهيج والزم طوراً فؤادي يدي »

لا أعلق على هذه الأبيات فإنها لوحةٌ تصفُ ذاتها .

وقد يميل الى جاريَةٍ من الجواري فتعتزُّ عليه ، فيغضب لذلك ويشهّرها كأن نسبة عشقه لها عارٌ ، نظراً لما عرف به من شذوذ ، وفي ذلك نلمح عناد الاطفال وعبثهم ، وللشاعر اكثر حالات الاطفال :

انا اهواكِ فموتي كمدا انني لستُ بسالٍ أبدا

كما أنه يشير الى عاطفة الحبّ عنده في بعض الأحيان ، فيشبهها بالضيف العابر :

فالحبُّ ضيفٌ عليَّ معتكفٌ والقلب من محنةٍ على خطر

وتارةً يشفق على حبيبته من ان تحبّ ، لأن مزاجها الرقيق قد لا يحتمل الحبّ واهواله ، متكئاً على تعبير قرآنيٍّ في وصف اهل جهنم ، فاستعاره بلباقة للعاشقين :

« يعزّ عليّ أن تجدي كوجدي لأنّ الحبَّ اهونه شديدُ
رأيت الحبّ نيراناً تلظّى قلوبُ العاشقين لها وقودُ
فليت لها اذا احترقت تفانت ولكن كلما احترقت تعودُ
كأهل النار إن نضجت جلودٌ أعيدت للشقاء لهم جلودُ »

وقد تتحكّم به القافية فيتكلف لها ما ليس طبيعيّاً ، غير أنّ هذا منه يُحمل على التماجن والسخرية كما يلي :

« ومقربةٍ ابصرتها فهويتها
هوى عروة العذري والعاشق النجدي

فلما تمادى هجرها قلت واصلي
فقالت «بهذا الوجه» ترجو الهوى عندي ؟

فقلتُ لها لو كان في السوق اوجهٌ
تباع بنقدٍ حاضر وسوى نقد

لغيّرت وجهي واشتريتُ مكانه
لعلّك ان تهوي وصاليَ من بعد

وان كنت ذا قبحٍ فاني شاعرٌ
فقالت ولو اصبحت نابغة الجعدي »

« فالجعديّ » هنا من مقتضيات الوزن ، اذ أنّ النواسيّ لا يعتقد بفضل الجعدي عليه غير انه اشار الى أنّ الشعراء لهم سوقٌ رائجة عند الجواري ، كاسياً هذه المعاني **العاديّة** مسحةً من الظرف .

ومن بدائع **خياله الخلاّق** الذي يندر توفّره لشاعرٍ غيره قوله في جاريةٍ لم يذكر اسمها ، طرد الليل بالكشف عن وجهها ، بما حمل الليل على الهرب ، كذلك فعل الصبح الذي لمح نورها

فيخاف فضيحته ، لانه اقل منها ، ثم يُلقي هذا الجمال العجيب على السِّحْر ، والسِّحْر متكأ شعراء العرب الذين يجعلونه غاية مبالغتهم في تفسير الجمال ، على ضوء المغيّب المجهول :

« وليل لنا قد جاز في طوله القدرا
كشفنا له عن وجه قينتنا الخدرا

فولّى برعبٍ قبل وقت انتصافـه
كأنّا ألحنا عنـد ذاك له الفجرا

واقبل صبحٌ قبل وقت مجيئـه
فأدبر مرعوباً وقد كسي الذّعرا

فبتنا بلا ليلٍ وقمنـا بلا ضحىً
كأنّا نصبناها لذاك وذا سِحْرا

وبانا على رسم النجوم كلاهمـا
وما منهما الا يُرامقنـا شزرا »

تمتاز هذه القطعة بخيالها الوثاب من قمةٍ الى قمـة ، بانسجام واتساق رائعين ، وفي البيت الأخير أروع ما يُتصوّر لشاعرٍ في الفطنة الى كمال الصورة وقيمتها . اذ ان تشبيه وجـه القينة بالفجر مألوف ، غير أنّ الطرافة جمع الليل الى الصبح ، بالهرب ، ثم إبانة العجز عن اكتناه حسنها بنسبتـه الى السّحر ، ثم يخفق بجناحه هذه الخفقة البعيـدة المدى ، إذ بثّ **الليل والصبح** في

النجوم ، ليجعل وجودهما أكمل في جمال الجارية فهما يرمقانها بجسدٍ وحنق .

لم اتعرف الى شاعرية بهذا التعـدد والتنويع ، والتصرّف بأشياء الطبيعـــة كأنها احرفٌ الى جانب الأبجديّة ، ليبين عن غرضه .

على انه يبلـــغ في **ترف المعنى ولطف التعبير** الغاية في مثل قوله :

« نفسٌ من المسك اكتست جسداً
صُوّر من درّةٍ على قـدر »

فقد هبط من عالم المعاني الى عالم المحسوسات، فشبه معنويّاً وهو النفس ، بماديّ وهو الجسد المصوّر من درّةٍ .

أبو نواس سريع التبدّل ، يعشق بكامل وجوده ، ولكنّ عشقه لا يدوم طويلًا ، بل يتنقل بسرعةٍ من حالٍ الى حالٍ ، ولكنه مع ذلك كلّه يضع مذهباً في العشق :

« إني لأبغض كل مصطبرٍ عن إلفه في الوصل والهجر
الصبر يحسنُ في مواضعـه ما للفتى المشتاق والصبر »

ومن ابرع لفتاته الذهنيّة ، في تصوير فرحـه بكأس

الحبيب ، قوله :

« نازعتها الكأس فيه فضلتها ففزتُ بالكأس بعد إمراس
فكادت النفس للسرور بها تخرج بين المدام والكاس »

وأمّا المبالغة فهي من مظاهر أسلوبه الشعريّ ، كثيراً ما يخرج بها عن المألوف فيحمل عليه الناقدون بسبب ذلك الخروج :

يكاد خيال الطّرف يجرحُ خدّها
اذا برزت من خدرها حين تطرفُ

وهو كثيراً ما يردّد هذا المعنى السالف إذ يجعل المحبوب عرضة لأن يُجْرح بالوهم او التخيّل من اللحظ .

وقد يتكىء على معاني القرآن في كثير من ابياته الغزلية

يا ناهر المسكين عند سؤاله الله عاتب في انتهار السائل

ويردد غير مرّة معنى كون اسمه صفةً لوجه المحبوب ، غير مكتفٍ بذلك، بل يضع والديه موضع الأولياء الذين يكشفون بكراماتهم الغيب :

اسمي لوجهك يا منى صفةٌ فكفى بوجهك مخبراً باسمي
الله وفّق والديّ له من قبل ان اهواك عن علم

الغزل الغلامي

النظرة التاريخية

قبـل أن اعرض الى غزل أبي نواس في الذكور ، ذلك
نزل الذي اعلن عن خطورةٍ تشبه الثورة في عصره ، من جهة
اجتماع والأدب، رغم أنه مسبوقٌ باشارات غزلية في الغلمان ،
ما من حركة مجموعية الا تمهّـد لها حركاتٌ تتقدمها قبلًا ،
ـذ نفسي بعرض تذكارات تاريخية عن هـذا النوع من الحبّ
ذي يستهجنه الرأي العام الانسانيّ رغم تقدم الدراسات الجنسية ،
نسامي الأذواق الحضارية في فهم الجمال الطليق .

هنا ألتفت الى القرآن الذي هو أدقّ واقوى مرجع عربيّ،
ذا الخصوص ، حين تحدث عن قوم لوط في سورة « الأنبياء »
آية ٧٤) وفي سورة الأعراف (آية ٨٠ — ٨١) « ولوطاً
قال لقومه اتأتون الفاحشة ، ما سبقكم اليها من احـد من
المين ، انكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء ، بل انتم
م مسرفون » .
وفي سورة هود (الآيات ٧٧ — ٧٨ — ٧٩) : « ولمـــا

جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هـذا يوم عصيب ، وجاءه قومه يُهرعون اليـه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال يا قوم هؤلاء بنـاتي هنّ اطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ، أليس منكم رجلٌ رشيد ؟ قالوا لقـد علمت ما لنا في بناتك من حق الخ ... »

تفيدنا هـــذه الآيات أن شعب إسرائيل ، المجاور للشعب العربيّ ، ابتُلي بهذه العادة ، واذا طلبنـا ذلك في الشعر العربي الجاهلي ، الذي ضاع كثير منه واختلف ، لا نعدم اشارة الى هذا ، والقرآن نفسه حجةٌ قاطعة في أنّ العرب عرفوا هـذا الانحراف الجنسيّ ، نذكر لهذا الآية ١٩ في سورة الانسان : «يطوف عليهم ولدانٌ مخلّدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .»

عرضت هذه الآية في مجال ترغيب المؤمنين في نعيم الجنة . فنحن لا نذكر حورها الا بذكر ولدانها ، هنا يُعـــد كلام الجاحظ مدفوعاً بخصوص كلامه فيما وُجـد من كتاب المعلمين من أنّ هذه العادة حصلت باحتكاك العرب بالخراسانيين بسبب الحملات العسكرية ، كما يندفع كلام الذين اشاروا الى هـذا الشذوذ من المعاصرين والقدماء .

على أنّ التوراة (تكوين ١٣ : ١٣ — ١٩) تذكر اخبار سدوم وعمورة ، وكيف انغمسوا في هـذه اللذة . وكذلك اليونان ، الذين اطلقوا على هـذا النوع من الحب صفة المثالي ، والشاهد على ذلك مائدة افلاطون، واسطورة « **زوس** » كبير

الآلهة مع الأمير « جانميد » الطروادي ، اذ اتخذ الاله صورة النسر وخطف الأمير الشاب الى جبل الأولمب، كما ان الدكتور « Nacht » في كتابه « Pathologie de la vie amoureuse » يذكر كيف أن هذه العادة الجنسية فشت في اثينا ، فروما ، فبيزنطية ، وايران ، وقرطاجة ، واسبارطة ، واديرة القرون الوسطى، وبلاد العرب، فاميركا ، واوروبا اليوم، وان في المانيا خمسين بالمئة يمارسون هذه العادة .

ولا ننس مظاهر هذه العادة في الأدب ، فإن من جملة التهم التي وجهت الى سقراط انه افسد اخلاق الشبان ، وبعد ذلك اشارة شكسبير في مقطوعاته (Lessonnets) المعروفة بالأربعة عشرية، حين يحث فتاه الجميل على الزواج كيلا تحرم الدنيا من نسله الحلو ، وقصة « دوريان جراي » لاوسكار وايلد ، ثم ما عرف عن بول فرلين ، وشاعر اميركا « والت هويتمان » وميكال انجلو المثّال الذي نظم قصيدة غزلية في صديق له من الأشراف، واخيراً اندره جيد في رسائله مع بول كاوديل وغيرها .

ليس في الأمر قضيــــة فضيلةٍ او رذيلة في نظر الدراسة النفسيّة ، غير ان الخطر الحقيقيّ لهذا الانحراف كائنٌ في وهن الصلات بين الجنسين ، واتجاهها الى الجنس المماثل ، ممـا هو في واقع الأمر فاجعة .

ولخير الف مرة ألاّ يوجد الجنس البشري من ان تُطـَمْأن الغريزة بهذه الطريقة !!!

النظرة البسيكولوجية

ليست الوراثة مسؤولةً عن الانحراف الجنسي الى الذكور ، اذ انه من النادر انتقال الانحراف من الوالد الى الولد ، فهو يختلف عن الامراض الاخرى، كالزهري والماليخوليا والكحولي، وما هو الا ظاهرة نفسيّة للخنوثة مردّها الى اختلال الطاقة الجنسيّة نفسها ، بما يؤدي الى الجموح الشبقيّ .

والمنحرفون تجاه المرأة على أصناف ، منهم من يبقى منجذباً اليها ، يهوى صحبتها ، وآخرون يخافونها ، والقسم الأخير لا يشعر نحوها بأيّ اهتمام .

✡

محبة الام اساسٌ للانحراف عند هؤلاء الشاذين ، فكلما تمادى المنحرف في السنّ ، ظهر أثر الام في حركاته ، اذ هو في حاجة ملحّةٍ الى عطف الامّ ، بخلاف الطفل العادي الذي يتقمص أباه .

وينمو المنحرف نموّ الانوثة فيصبح امرأة مع الرجل ، نتيجة التشبث بالام ، فهو ينظر بعد ذلك الى كل امرأةٍ على انها

بدل من أمّه ، ولكنه بدل محرّم عليه ، فكلما سوّلت له نفسه التحدّث فيـه ، تجسّم له خطر **الاخصاء** ، فهو يميله الى الذكر يطمئنّ على عضوه من الاخصاء ، لذلك فهو يعبـد القضيب ، ويلتمسه ، واول ما يظهر هذا لديه بالرغبة في رؤية عضو ابيه ، وهو بمعاشرته الصبيان يتقمص اباه وامه في نفس الوقت ، فالعطف الذي يهبه للصغار ، انما يهبه لنفسه كما لو كانت امه مصدراً له ، وهو بمحبته ذاته ، انما يعوض عن فشله في حب أمـه ، اذ أنّ ذلك الانحراف يكون مسببـاً عن الاخفاق في حبّ الطفولة ، او في حبّ المراهقة .

يرى فرويد (Sigmund Freud) أن سبب الجنسية المثالية فشلٌ في الحب الذي عُونيَ في الطفولة لا في المراهقة .

☆

« يتلخص من آراء كثير من العلماء بخصوص التخنث ، أن الاختلال في الوظائف العضوية يكون اكثر ظهوراً في هيئـة تركيبهم وبنيتهم ، من حيث تجويف الحوض وقربه مما عنـد المرأة ، ومن حيث اكتناز الشحم ، ونعومة البشرة ، ورقـة الصوت وطراوته ، وتوافر الاستعداد الفنيّ – كالميـل الى الموسيقى والغناء – عند ذوي الانتكاس من المتعلمين ، يظهر هذا عند الفنانين الاوروبيين الذين يتشبهون بالنساء متخضبين متمشطين وعند مشاهير المغنين العرب ، فهذا « **طويس** » المغني الدفّاف كان يخضب يديه الى المرفقين ، وذاك ابن سُريج المغني

العوّاد كان خفيف العارضين لا لحية له ، يلبس الثياب المصبّغة، ولا يغني الا متنقّباً » .

☆

هذه آراء علميّـة بخصوص المنحرفين ، يرجعون السبب في الانحراف الى فساد في البنية الرجولية ، والى التشبث بالأم ، والاخفاق في حبها ، يضاف اليها اثر البيئة الاجتماعي ، ووضع حضاريّ مخصوص ، حيث تحجب المرأة فيـه فيعسر الوصول اليهـا ، او يتطور الذوق في تقدير الجمال ، وبالأحرى ، الا يمكن ان يردّ ذلك الى الرغبة الجنسية نفسها في جميع الاعتبارات لا بخصوص الانحراف وحده ؟ فالغريزة تبحث عما يشبعهـا بأي شكل .

بقي أن ننظر في شاعرنا النواسيّ على ضوء هـذه المعلومات لندرك مقدار شذوذه ، ومن اي صنف هو تجاه المرأة، أعاجزاً عنها تماماً ، او انه يرغبها ويرهبها، او انه من الصنف الذي بقي يهوى معاشرتها ومحبتها ، ولم يفقد حيويته نحوها ؟

من المعلوم أنّ ابا نواسٍ فقد اباه صغيراً ، فربّته أمّـه ، موجّهةً اليه كل اهتمامها لتعوّض به ما فقدته بوفاة زوجها ، هذا لا ريب في انه كان مؤثراً الأثر الملحوظ فيه من ناحية **تعلقـه بهذه الامّ** ، غير انهـا اضطرت الى العمل بغسل الثياب او غزل الصوف لتعيش، فأخذت ممارسة العمل تصرفها عن ولدها المدلّل

« الحسن »، وفي الدرجة الثانية ، عهدت به الى الكتّاب ليتعلم القراءة ، فزاد بعده عن أمه ، ثمّ انتقلت الى دارٍ وفقت الى امتلاكها وكانت تجمع فيها الرجال والنساء فزاد ذلك في قلق « الحسن » وخوفه من ان يحرم ذلك العطف ، واوجس في قرارة نفسه رهبةً من هؤلاء الذين يغدون ويروحون الى دار امه ، كأنهم خصومه ، يريدون ان يسلبوه أغلى شيء عنده ، وربما كانت تبدر من هؤلاء المتجمعين عند امه اشارةٌ فاسقةٌ تحاول الام وتحرص على اخفائها عن عيني ولدها « الحسن » .

واخيراً تزوجت برجل بصريّ اسمه « العباس » هجاه ابو نواس ، وهجا معه البصرة ايضاً .

هنا نستدلّ أنّ ابا نواس اخفق في حب أمه ، وأن حبه لأبيه او تقمصه في ابيه لا يمكن أن يُدرك لحداثة سن الطفل عند وفاة ابيه ، غير أننا نعلم بعض الشيء عن ذلك الأب من انه كان جندياً ، والجندي يتربّى على قوة الارادة ، وحدّة المزاج ، مما يجعل الأم كالمتلاشية الارادة ازاءه .

واما من ناحية العشرة ، والوسط الاجتماعي ، فكان كل ما فيه يمهّد السبيل الى انحراف ابي نواس .

فقد عهدت به امّه الى براء العود لتتخلص من مراقبته ، وبعد براء العود الذي عُرف بحبّه للغلمان يأتي دوره مع والبة المعروف بحبه للغلمان ، وكذلك استاذ ابي نواس « ابو عبيدة »

المشهور عنه ذلك الميل . وقبل هذا وبعده – زيادة على الوسط الاجتماعي – **مزاج ابي نواس الفني كشاعر** ، وكعازفٍ على العود، وان التاريخ يذكر لنا انه كان جميلًا ، حسن الاعضاء، في صوته بحّة ، وأنه كان ميالاً إلى الغناء . روى ابن منظور أنّ والبة بن الحباب ارتاع لما كشف عن بدنه .

على أنّ شعر الرجل دليلٌ بيّنٌ على نعومة ذوقه ، وعذوبة نغمه ، يزاد على ذلك أنّ ابا نواس مركّب الاحساس بالشيء، يعيشه بأكثر من معنى واحد ، يعيشه بكامل كيانه لا ينفرد عضو بالاحساس عن آخر ، فهو يحسّ الخمر لا بفمه بل بكل حواسّه ، اذ انه من الظلم أن يفرد فمه بشربها ، فيتركها تشع على يديه ، ويطلب من الساقي أن يذكر له اسمها في سمعه ، ويمارس اللذة الجنسيّة كيفما شاء ...

لكنّ ابا نواس لم يفقد احساسه بالمرأة مطلقاً ، خاصة عند حبه جَنان التي لو افلح معها لبعد عن شذوذه وضعف الدافع اليه.

على انني امسك عن الاسهاب في استعراض هذا الغزل الشاذّ لدراسةٍ أخرى ربما جاءت اوسع لطبقة خاصة من المثقفين.

مظاهر غزل ابي نواس الغلامي

على العموم يكثر ابو نواس في غزله الغـلاميّ من **التحرق والشكوى** ، لهجران من أحبّ من الغلمـان ، حتى انّ ذلك الغلام يمتنع عليه في الاحلام ، وقد مرّ معنا انه في غزله النسائي يردّد كثيراً كلمة « الهجران » فهو ابداً في لوعة واشواق :

افنيت فيك معانيَ الشكوى   وصفات ما القى من البلوى
قلَّبت آفـاق الكلام فما   أبصرتني أغفلتُ عن معنى
واذا نجوتُ القلب فيك وجدتك   في الحشا ادنى الى النجوى

وقد لا يجد في غلامـه **الا ملاكاً** هبط من السماء ، فكل جميل في الدنيا يعيش قابساً من حسنه ويحاكيه :

معاذ الله ، لست بآدمي   فقل لي هل نزلت من السماء

وربما سجّل بغزله عادة تزويق الغلمان ، وتطريرهم كالنساء :

يا أيها الريم الذي صادني   بمقلةٍ في اللحظ حوراء
وحاجبٍ كالنون قد نُمّقت   فوق حجاج العين زجّاء
ومحجر انور من فضةٍ   مجلوّة بالصقل بيضاء

وعارض أظهر تشبيكه كروضةِ الفردوس خضراء
شعرٌ يزيد المرد قبحاً ، وقد ألبسه نوراً بلألاء

فاذا صاغ الله الناس من لحم ودم، فغلامه من غير طينة الناس

يتيه على العباد بحسن وجهٍ وشعرٍ قد اطيل علـى قفاه
براه الله من ذهبٍ ودُرٍّ فأحسن خلقـه لمَّا براهُ
فلمَّا خطّـه بشراً سوياً حذا حور الجنان على حِذاهُ

واذا كانت العين رسول القلب الى الجمال ، فقد تنشب بينهم حربٌ ، بسبب التورط في الغرام :

إن متّ منك وقلبي فيه ما فيه ولم انل فرجاً مما اقاسيه
ناديت قلبي بحزن ثم قلت له يا من يبالي حبيباً لا يباليه
فردّ طرفي عـلى قلبي بحرقته هذا البلاء الذي ادليتني فيه

وهنا يحتج الطرف الباكي على القلب الذي هو سبب البكاء

ارهقتني في هوى من ليس ينصفني
وليس ينفكّ من زهو ومن تيهِ

ومن اغرب تشبيهاته ، مقابلته القبلـة بالكتابة ، في قو لغلام قبّله فمسح خده من اثر القبلة :

« يا ماسح القبلة من خده من بعدما قد كان اعطاها

خشيت أن يعرف إعجامها   مولاك في الخدّ فيقراها
ولو علمنا أنه هكذا   كنّا اذا بُسنا مسحْناها »

واذا نقم على دجلة التي غيّبت حبيبه ، لا ينسى نسبة زيادة الماء الى دمعه :

« وقفت ابكي على سواحلها   فمن دموعي كثرة الماء »

يغار ابو نواس على غلامه حتى من الحمّى التي يتهمها بحبه لانها تلازمه ، فيجعل لها صفات البشر :

« اقول للسقم كم ذا قد لهجت به
فقال لي : مثلما تهواه اهواه »

ويتمنى ان يكون محموماً بدلاً من غلامه ، وفي كلامه لهبٌ وحدّةٌ عاطفة :

فديتك جسمي كان احمل للشكوى
وكان عليها منك يا سيدي أقوى

فديتك لم انصفك اذ أنت لابسٌ
شعاراً من الحمّى ولم ألبس الحمّى

ثم هو كثير الاستخدام لتعابير **القرآن** ، **والحديث** ، **والشرع** ، **والمذاهب** في شعره ، بحيث يشعر المطلع على شعره أنه أمام

محيطٍ عالم بهذه الاشياء .

قال في غلام متعبّد قرأ في صلاته وهو إمام : « ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحقّ » فحاجّه بكلامه آخذاً عليه ذلك القتل لعاشقٍ مثل ابي نواس :

ولم أنس ما ابصرته من جماله
وقد زرت في بعض الليالي مصلاّهُ

ويقرأ في المحراب والناس خلفه
ولا تقتلوا النفس التي حرّم اللهُ

فقلت تأمل مـــا تقول فانهـا
فعالك يا من تقتل الناسَ عيناهُ

وقد يطلبُ من هذا الغلام أن يرافقه الى فقيهٍ من الفقهاء ، ليتعرف الى الحلال والحرام فينصرف هـذا الغلام عن قتله بغير حقّ :

اتعدو للحديث الى فقيـهٍ وتنظر في الحلال وفي الحرام
فهل حُدّثت عن قتلي بشيءٍ من الفقهـاء يا بدر التمامِ ؟

ويتّهم الذين لم يحبّوه من الغلمان ، فيبادلوه عاطفته ، بانهم خالفوا حديث الرسول :

ما لي أُحِبُّ ولا أُحَبُّ وإن وصلتُ فلست أُوصلْ ؟

إن كان قد كذب الحديث فكلُّ ما يُروى سيبطلْ
خالفتمُ الحبر الذي يروى لنا عن خير مُرسلْ

ما هذا الخبر يا أبا نواس ؟ فيجيبنا ببيتين يضمنهما هذا الحديث المشهور الذي عناه بقوله السابق :

إن القلوب لأجناد مجنّدةٌ لله في الأرض بالاهواء تعترفُ

فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ وما تنافر منها فهو مختلفُ

مذاهب

وما اكثر ما يتكىء على معاني اصحاب **المذاهب** في غزله :

وصار أعراضاً بشاشاتكم ومات ذاك السهلُ والمرحبُ
فقال اليك يا جمّاشُ عنّا فإني من حديثك في اعتزال

« فواحرباه من عيني بلذتها جنت ضرري
فان عاتبتها فيه احالتني على القدر
فتخصمني فأسكت لا أحير القول كالحجر »
فَلانَ وجاد لي بعد امتناع كذاك الله يفعل ما يريد

هذه الكلمات اعراض ، واعتزال ، وقدر ، والله يفعل ما يريد ، تشير الى مذاهب **المتكلمين** ، **والمعتزلية** ، **والقدرية** ، **والجبرية** ، فالذي لم يطلع تماماً على فكر هذا العصر يصعب عليه

فهم النواسيّ .

ولا ينسى اصطلاحات الفقهاء واحكامهم الشرعية ، فيعبث بها ، ويتخذ منها سبيلًا الى غزله الظريف :

ما زلت صائم سخطكم حتى يفطّرني الرضا
طرفك زانٍ قال دمعي اذن يجلده اكثر من حدّ

واما المناطقة فروح اسلوبهم تظهر في كثير من ابياته الغزلية :

حلفت للسقم اني لست اذكره
وكيف يذكره من ليس ينساه!

ما طار طرفي الى تحصيل صورته
الا تداخلني من حسنها عجبُ

اما المبالغة فقد اتهم بها واصبحت من مظاهر شعره في بعض حالاته ، منها ما قصد به الى تكميل صورة المحبوب ، فاطلق عليه ما يطلق على الله :

يا بدعةً في مثالٍ لا مدركاً بالصفات

وقد تجيء مبالغاته مشروطة « بلو » مبرّرة الافراط كما في هذه القصيدة الرائعة :

وظبي تقسم الآجال بين الناس عيناه

تعالى الله ما احسن ما صوّره الله
فلو انّا جحدنا الله يوماً لعبدناهُ

ومنها مبالغةٌ مركوزةٌ على تسلسل منطقيّ وخيال لطيف:

تمنّاه طرفي في الكرى فتعتّبا
وقبّلت يوماً ظله فتغيّبـــا

وأنبوهُ اني قد مررتُ ببابه
لأسرق منه نظرة فتحجّبا

ولو مرّ نفخ الريح من خلف اذنه
بذكري لسبّ الريح ثم تغضّبا

وما زاده عنـدي قبيح فعاله
ولا السّبّ والاعراض الا تحببا

ومـا أخرجته المبالغـة عن ان يكون غزلاً فسمج وسخف مثل قوله :

نتيـج انوار سماويّـــة
حليـف تقديس وتطهـــير

يكلّ عـن ادراك تحديـــده
عيون اوهـــام الضمـائير

فُقْتَ مدى وصفي ولكنَّ ذا
ـ تفديك نفسي ـ جهد مقدوري

وكيف احكي وصف من جلّ أن
يحكيـــه عند الوصف تقديري

الا بمـــا تخبر امشاجـــه
من كامنٍ فيهنّ مستور

هـذا تفلسفٌ خارج عن حدود الشعر لغلبـة العنصر الس
المنطقي فيه ، فضعفت الحاسة ، وقل النغم ، وبَهُتَ الكلام
والنثرُ أصلحُ لمثل هذا النظم المتكلف .

ومن المبالغات المضحكة حقاً هذه القطعة التي رواها الاغ
للنواسي ، وتروى للنظام ايضاً :

توهّمـــه قلبي فأصبح خـده
وفيه مكان الوهم من نظري اثرُ

ومرّ بفكري خاطراً فجرحته
ولم ار جسماً قطُّ يجرحه الفكرُ

ومنها ما جاء عمليةً حسابيةً ، وقضية شرطيـة ، رغم ا
النظام اعجب بهذا التركيب العجيب وحكم له انـه اشعر النا
لإشارته الى الجزء الذي لا يتجزّأ :

تركت مني قليلا من القليل اقـلا
يكاد لا يتجزّا اقل في لفظ من «لا»

لكنه بلغ القمة في لطف الاداء وعذوبة الانسجام ، رغم الافراط الظاهر :

ومستترٍ عني بضوء جبينـه يخيّل في وهمي كخطوة خاطر
لئن كانت الاوهام تجرح خده باسياف اوهام العيون النواظر
فــان قلوب العالمين لذكره جوارحهـا مكاومـةٌ بالخناجر

وقوله :

يا نسيماً يدق عن كل لمسٍ لطف جسمانك المكون نورا
ما رأينا مثال وجهك موجوداً ولا مشبهاً لـه تصويرا
كدت الا تكون شيئاً من الرقة الا بدراً نراك منيرا

ومن غلمانه أدباء ، واذكياء ، كجواريه ، يبلغون درجة اكتشاف ما في النفوس ، ويجعل قوة غلامه الادراكية متجمعةً في مقلته ، هذه المقلة التي تشغل اهم مركزٍ في حواسه ، واظهر مكانة في شعره :

ويمتحن الصدور بمقلتيـه فينكشف البريء من المريب
أصبني منـك يا املي بذنبٍ تتيه على الذنوب به ذنوبي
والله لولا الحيا ممن يفنّدنا لما نسبتك ذا علم وذا أدب

وربما جعله كالكُرة تتلقفه القلوب مختصمةً فيه :

تفرد بالجمال بغير مثلٍ وأخلته المذمّةُ والعيوبُ
تنازعه القلوب الى هواها فتغتصب القلوبَ به القلوبُ
فغاصبها المحيط بها سروراً ومغصوبٌ عليه له وجيبُ

واحياناً يقيم من **جمال غلامه** سوقاً يُنادي فيه على القلوب لتشتري وقد اشار الى المعنى الآتي غير مرة ، في مدح الأمين

لك وجهٌ محاسنُ الخلق فيه مائلاتٌ تدعو اليه القلوبا

على أنه وفق لتصوير اختلاف المواعيد توفيقاً ملحوظاً بلفظ موجز سهل :

كأنما انت وان لم تكن تكذب في الموعد كذاب
إن جئتُ لم تأتِ وان لم اجىء جئتَ فهذا منك لي داب

ألمحت قبلًا الى أنّ ابا نواسٍ قويٌّ « الاستحضار » للشيء وذلك ضربٌ من التخيّل معروف :

يخبرني عن قلبهِ كتبهُ أنّ به اعظم مما بي
حتى كأني واجدٌ مسّه أو حسّه من بين اثوابي

وقوله :

إني لأحسد من تمتع سمعه بكلامه

وتفرّدت اجفانه بقعوده وقيامه
اصبحت من حبي له الهو بوجه غلامه

عين ابي نواس :

وكما ذكرنا عنايته بأمر عين المحبوب التي تكتشف المغيّب، ين ابي نواس كذلك تستشرف الغيوب، وتخبر بموعد ب الحبيب :

غاب عن الأعين حتى اذا لم ارجُ من غيبته أوبا
فاختلجت عيني فأبصرته كأنّ عيني تعلم الغيبا

ني لطرف العين بالعين زاجر فقد كدت لا يخفى عليّ ضميرُ

وقد يجعل حركات الأعضاء الظاهرة قائمةً على هفّ الضمير، ازع القلب :

لم تأتِ رجلي مكاناً حتى تشايع قلبي

لكنه اسفّ عن بشار في استخدام الريح بقطعته البائية عروضة في الديوان ص ٤١٤، ثم هو يصوّر لنا وجهاً مترفاً ن وجوه عصره الغارق في الثراء والبذخ، فيذكر العاج، الديباج، وماء الورد، مستأنساً باسلوب امرىء القيس :

كم ليلة ذات ابراجٍ واروقةٍ
كاليمّ تقذف امواجاً بأمواج

سامرتها برشاً كالغصن يجذبه
دعص النقا في بياض العاج رجراج

وسنان في فمه سمطان من بردٍ
عذبٍ وفي خده تفاحتا عاج

كأنما وجهه والشعر مُلبسه
بدرٌ تنفّس في ذي ظلمة داج

فظل يسقي بماء الورد من اسف
ورداً ويلطم ديباجاً بديباج

واذا عرفنا من غلمانه اشداء فتاكاً في استعمال السلاح فسلاحُ بعضهم من غير صنف السلاح ، كالمبسم ، واللحظ ، حتى شعر الوجه الذي يشبه الرماح ، ولا شك في ان استحسان شعر الوجه في الغزل شيء ينبو عنه الطبع ، ولكنه ابو نواس :

كأنما وجهه والكأسُ اذ قربت
من فيه بدرٌ تدلّى فيه مصباحُ

مدججٌ بسلاح الحبّ يحملهُ
طرفُ الجمال بسيفِ الطّرف طمّاحُ

فالسيف مَضْحكه ، والقوس حاجبه
والسهمُ عيناه ، والأشعار ارماحُ

يلاحظ في البيت الأول أنّ التشبيه رائع لم يُسبق الى مثله ابو نواس ، فالصورة متخيّلة مركبة من بدر تدلى فيه مصباح، يقابل وجه حبيبه بالبدر وكأسه بالمصباح ، وقد جاء الجناس لطيف الوقع في البيت الثاني بين **طرف وطَرف** اي **فرس وعين**. ابو نواس مرهف الذائقة، يلتفت الى ملاحظة الشيء بسرعة، فقد يتناول اشياء الحياة على اختلاف انواعها، ثم يشير الى مخالفتها طبيعة الأمر ، او الى خروجها ، لذلك فهو يسخر في غزله من ولي العهد في خطبه السياسية ، ومن هرج الناس ومرجهم في العيد ، ليبقى له جوّه الشعريّ الخاص ، شأن اصحاب المواهب الفنيّة الكبيرة :

« يا فرحةً جاءت مع العيدِ ... وفي الذي اهوى بموعودِ
جاء من الأعين مستخفياً ... من بعد إخلافٍ وتنكيدِ
حتى اذا الراح جرت بيْننا ... أمنتُ من خلف وترديد
ظلّ وليُّ العهد في خطبةٍ ... وظلتُ بين الراح والعود
صار مصلانا أباريقنا ... ونحرنا بنت العناقيد
وصار ردف الظبي لي منبراً ... احسن من عود على عود
للناس عيد عمهم واحدٌ ... وصار لي عيدان في عيد »

في هذه القصيدة اربعة مواقف ، **الاول** : استخدامه الخمر جرياً على عادته في استمالة المحبوب ، لأن الخمر تثير الغرائز ، فهي كالفخ للطائر .

الثاني : مقابلة لهوه ومجونه ، بجد وليّ العهد في خطبة العي

الثالث : هذه السخرية الجارحة من ولي العهد الذي يشب
عوداً لا يفهم أن يحيا ، على عودٍ الذي هو المنبر .

الرابع : هذا التعدد في فهمـه واحساسه بالشيء ، «
نشوتان وللندمان واحدة، شيء خُصصت به من دونهم وحدي»
وهو هنا له عيدان وللناس عيد واحد ، شيء خُصّ به ايضاً

☆

ذكرنا قبلًا أنه يتكىء احياناً على اسلوبْ المناطقـة
والمتكلمين ، والمحدثين ، والفقهاء ، ويضمّن الحديث والقرآ
في شعره الغزلي ، وهو هنا يستعمل اسلوب الحكمـة ، بتعلي
الأشياء والحكم عليهـا ، بشيء من التفلسف الذي يحتم
الشعر بعضه :

« يا تاركي جسداً بغير فؤادِ
أسرفت في هجري وفي إبعادي

ان كان يمنعـك الزيارةَ اعينٌ
فادخل اليّ بعلّـة العواد

ان العيون على القلوب اذا جفت
كانت بليتهـا على الأجساد

اشكو اليك – فديتَ – اهلك كلهم
ضربوا عليّ الأرض بالأسواد »

تروى هذه الأبيات للنظام المعتزلي ، واين النظام من روح النواسي الظاهرة في هذا الشعر ، اذ ما له وهذا ؟

على ان الشاهد اصطناع الحكمة في البيت الثاني ، والبيت الثالث يشير الى مضايقة اهل الغلام للشاعر ، ومنعه من ملاقاته.

*

واذا عرفنا قبلًا نماذج من غلمانه ، فقد بقي نموذج هامّ ، يفيد التاريخ ، ويشير الى لون المجتمع ، ويلمس الدين بطرف ، ذلك النموذج من غلمانه المرغوب فيهم راهبٌ من اولئك الرهبان الذين طفحت بهم الأديرة التي كان النواسي يألف خماراتها ، فكان الى جانب اعجابه بجمال بعضهم وهم يلبسون **الزنار** الذي يشكل الجسد ، ويظهر محاسنه ، كان ايضاً يعجب بحياتهم الصافية الهادئة ، ويبرّر مسيحيتهم :

إني هويت حبيباً لست اذكره   الا تبادر ماء العين ينسكبُ
مزنّرٌ يتمشى نحو بيعته   إلهه الابن فيما قال والصُّلُب
يا ليتني القس او مطران بيعته   او ليتني عنده الانجيل والكتب
او ليتني كنت قرباناً يقربه   او كأس خمرته او ليتني الحبَبُ

كثيراً ما يتعاطى شاعرنا لذّته جهراً ، وهو يحبّ « الافتضاح والتهتّك ، فما سبب ذلك ؟

حبّه للشاذ الممنوع ، ونفرته من جمود التقاليد ، في جوّ من الحرّية التي عبدها ، وعُرف عصرهُ بحبّها ، فاذا قال الحديث النبوي : « اذا بُليتُم بالمعاصي فاستتروا » معنى ذلك أن لا يكون مجالٌ لاغراء الغير بالمعصية ، وان تسري امور الدين وفق رضا الله ، غير أن ابا نواس ينظر الى القضية من كل جوانبها على انها قضية **حياة وحرية** :

« ايا من طرفه سحرُ ومن ريقتــه خمرُ
تجاسرتُ فكاشفتك لمّــا غُلب الصبرُ
ومــا احسن في مثلك ان ينهتــك السترُ
لئن عنّفني النــاسُ ففي وجهك لي عذرُ »

ابو نواس يدرك أنّ الناس يرمونه بالشذوذ الجنسيّ ، فيعمد الى تبرير محبته للغلمان بأسلوبه الماجن ، وبراعته الذهنية : من ذلك ان الله حرّم الزنا بالنساء ، والزنا في الشرع يلزم **الحد** ، لذلك فهو يلوط فيخرج من حكم الزنا ، ناسياً بتخابث أن القرآن لم يهمل الفاحشة التي هي اللواط في عرف المفسّرين ونص عليها (« النساء » آيــة ١٦) وهو يردد كثيراً من معاني تبرير الفاحشة ، اذ أنّ المعروف عن رجال الفن نفرتهم من قيود الزواج والأسرة :

اني امرؤٌ ابغض النعاج وقد يعجبني من نتاجها الحمَلُ
ان عذّب الله بالزنا فأنا لا ناقةٌ لي فيه ولا جملُ

لابليس مكانةٌ محترمة عند ابي نواس إذ انه يسهّل عليه
سبيل الوصول إلى غلمانه عند التعسُّر ، فهو ينجده عجلاً عند
الطلب ، واذا تأخر ابليس هدده بالرجوع الى الصلاة :

فما مضت بعد ذاك ثالثةٌ حتى اتاني الحبيب يعتذرُ
فيا لها منةٌ لقد عظمت عندي لابليس ما لها خطرُ

طبقة معشوقه : احبّة النواسيّ من جميع الطبقات ، وهذا
نموذجٌ منهم ، أميرٌ خطير يسكن قصر « الخلد » و « الكوثر » ،
قصري الخلافة ، فمن هو ؟

ا من الخلد لنا غدوةً في قصبٍ من صنع اسكندرا
موكب تحميه خصيانه كما رأيت الملك الأكبرا

ولما سأل هذا الأمير الخطير ان يردّ قلبه اليه إذ ليس من
بدل سلب الناس قلوبهم اجاب :

فقال من يُدْعِي على شادنٍ
قد ملك الأسود والأحمرا

ولكن ابا نواس يريد أن يتابعه ليطلب حقه منه وجهاً لوجه:

بالله هل تعرف لي قصره ؟

فقال لي «الفردوس» و «الكوثرا»

وكما يسرف في المادية بتصوير غلامه ، يطير الى السماء برف
عن آفاق المادة :

تضمّن الروح جسم النور فامتزجا

في عارضٍ فيه ارواحٌ وتأليفُ

فليس يخطر في الأوهام انّ له

عدلاً وليس له في الحسن موصوف

فماذا يكون هذا الجسد يا ابا نواس ؟ انه خيالٌ نواسي

وقد يجعل **المحسوس** الذي هو القبلة ، الذ من المنى التي ه
معنى ينزع عن الوجدان ، ويتخذ من وجه غلامه بستاناً ، وعي
تقطف من ذلك البستان زهراً وثمراً :

أبصارنا تجني محاسن وجهه ففؤاد كل فتىً به مفتون

خالسته قبلًا الذ من المنى قلبي بها حتى الممات رهين

واذا وصف القدامى خيولهم بانها « قيد الأوابد » فوج
غلامه مستعبدٌ للأماني يقيّدها ، ويا ليته سهل القيادة ، فاغر
ما في امره أنه عفّ الضمير ، ولكنّ لحظه زانٍ :

مستعبد للأماني حسن منظره عف الضمير ولكن لحظه زانِ

حتى الأرض ، فهي تعشق غلامه ، فلو استطاعت لانقبضت حتى تكون لباساً له وحده :

لو تستطيع الأرض لانقبضت حتى يكون جميعه فيها

غير ان التعبير هنا لم يُسعِف ابا نواس ، فلا يفهم منه المعنى المقصود ، الذي يلائم ان يكون هكذا : هذا الغلام قائم مقام الناس كلهم، فلو استطاعت الأرض لعشقها له ان تتجمع لتكون على مقداره وحده ، فالانقباض هنا غير وافٍ .

على ان نهاية الأرب للنويري ذكرت له هذه القطعة الخالدة الراقصة وهي تصلح ان تكون نموذجاً حياً لشعر الغزل كله ، موسيقاها ، وحلاوة تعبيرها ، ومعانيها اللطيفة :

« جال ماء الشباب في خديكا
وتلالأ البهاء في عارضيكا

ورمى طرفك المكحل بالسحر فؤادي
فصار رهناً لديكا

انا مستهترٌ بحبّك صبٌ
لست اشكو هواك الا اليكا

يا بديع الجمال والحسن والدلّ
حياتي وميتتي في يديكا

بابي انت لو دريت بوجدي
لم يلن ما لقيت منك عليكا

اصبحت للهوى سهام المنايا
قاصدات اليّ من عينيكا »

●

غزله في الغلاميات

لأبي نواس هوسٌ بالتنقّل من جوٍّ الى جوٍّ ، يتمتّع بنشاطٍ غريب في ممارسة اللذة ، كأن يومه يستعير من غده ، على ان مثل ابي نواس يدفع ثمن هذه اللذة، اوجاعاً وآلاماً متى وصل الى مرحلةٍ خاصةٍ من العمر ، فمن على هذه الشاكلة لا يعمّر طويلًا ، لأنه استنفد طاقته قبل وقتها :

دبّ فيّ السقام سفلًا وعلوا وأراني اموت عضواً فعضوا
ليس من ساعةٍ مضت بيَ إلا نقصتني بمرّها بيَ جزوا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا

أشرت قبلًا الى انه كان مغرماً باستيفاء اللذة ، واستقصاء المتعة ، فهو إذ يحبُّ هذا النوع الموصوف بالغلاميات ، انما ينظر الى تعدد ابواب اللذة عندهنّ ، فهي تقدم له **المرأة و الغلام** في نفس الوقت ، وربّما كانت الغلاميّة ابرع في حسن الاستمالة لانوثتها ، وسرعة تأثرها ، وهذا الصنف من الخليعات يظهر في عهد نضج حضارة ما ، اذ ان الناس لترفهم يحاولون ايجاد متع جديدة ، أليس في عصرنا الحاضر فتيات يقصّرن شعرهن على

طريقة شعر الفتى ، ويلبسن السروال ويشاركن الشبان في ا...
الالعاب الرياضية ؟

مطمومـة الشعر في قمصٍ مزرّرة
في زِيٍّ ذي ذكر سيماه سيماهـا

وقد تكون احداهنّ ممعنة في الفسق تحبّ مثله ان تستو...
لذتها من جميع جوانبها :

رأت زِيَّ الغلام اتمّ حسناً وادنى للفسوق ولـــلأثـ...
فما زالت تصرّف فيـــه حتى حكته في الفعال وفي الكلا...
ترجّل شعرها وتطيل صدغاً وتلوي كمّها فعل الغلا...
وراحت تستطيل على الجواري بفضل في الشطارة والغر...
تعاف الدفّ تكريهاً وفتكاً وتلعب للمجانـة بالحمـــا...
ويدعوهـا الى الطنبور حذقٌ اذا دارت معتّقـــة المـدا...
وتغـــدو للصوالج كل يومٍ وترمي بالبنـادق والسهـا...

•

مع معشوق الغلامية

« كانت الشعراء تجتمع كل يوم ٍ بباب أسماء بنت المهدي ، حيث اعدّت لهم مجلساً يتناقلون فيه غرر الأدب ، والشعر ، والظرف ، وكان ابو نواس ريحانة ذلك الحفل . ففي احدى روحات الى قصر الاميرة العباسية ، عرضت له جارية غلامية منفلتة من باب القصر ، عجزاء ، مطمومة ، ناهد ، مقرطقة ، فاشتد عجبه لما رآها ، فتعرّض لها ومازحها ، وما زال دأبه معها على تلك الحال من تليينها بالشعر ، والنكات ، والتوسّلات ، الى ان رآها يوماً وقد خرجت من القصر وعليها قباءٌ منسوجٌ بالذهب ، وعلى رأسها محبسة ابريسمية منسوجة بالذهب ، وفي رجليها نعلٌ مغشاة بديباج ، تشدّ خصرها بمنطقة ذهب مفرقة في زرياب حرير عريض وقد غابت في خصرها من انهضامه فما كاد يبين ، وفي يدها قضيب خيزران تعبث به ، فدهش كل من رآها على باب الاميرة وبهتوا لروعة جمالها وحسن زيها ، قال ابن الداية (وهو الذي نقل عنه ابن منظور هذا الخبر): فالتفت اليّ ابو نواس وقال : « مثل هذه يا نخاسُ فاشترِ لا مثل رقيقك » فقلت له : دعني ، ما رأيت مثلها قطّ على كثرة ما مرّ على يديّ من الرقيق ، وما تصلح هذه الا للخليفة . »

ثم اقبلت الجـارية وهي تروحُ وتجيء ، ثم وقفت علي
ونظرت الى ابي نواس نظرة دلٍّ ، على أنّ في قلبها منه شيئ
فانشأ يقول وهي تسمعه :

« لقد صُبّحت بالخير عينٌ تصبّحت
بوجهك يا معشوق في كل شارق

مقرطقـةٌ لم يحنِها سحب ذيلهـا
ولا نازعتهـا الريح فضـل البنائق

ومطمومـةٌ لم تتصل بذؤابـةٍ
ولم تعتقـد بالتاج فوق المفـارق

كأنّ مخطّ الصُّدغ فوق خدودها
بقيـــةُ انقـاسٍ باصبع لائق

ندته بمـاء المسك حتى جرى لهـــا
الى مستقر بـــين اذنٍ وعـاتق

غلامٌ ، والا فالغـــلام شبيهها
وريحان دنيـــا لذة للمعـانق

تجمّع فيهـا الشكل والزي كلـه
فليس يوفّي وصفها قول ناطق

فطانة زنديقٍ ولحظـــة قينةٍ
بعين الذي يهوى ومنية عاشق

وتقطيب سجنيٍّ وتكريه شاطر
ونظرة جنيٍّ ولحظ منافق »

فلما فرغ من انشاده ، ضحكت وولت راجعة ، فاذا هي أحسن الناس قـداً وليونة اعطاف ، ثم انصرفنا وقد أخـذت بجامـع قلوبنـا ، وانقضت أيامٌ وابو نواس كسلان لا ينشط لشرب ، واذا بتلك الجـارية تدخل فجـأةً بغير إذن ، ودون سابق علم، قائلةً : « اتقبل الطّفيليّة ؟ » فوثب إليهـا وقبّل رأسها وعينيها ، ويديها ورجليها ، وقال لها : « اية فرحة احمد الله عليها لعطفك على عبدك يا سيدتي؟ ولكن كيف تخلصت ؟» فقالت له : « خرجت لأداء رسالةٍ ، فكنت أهمّ اليّ من نفسي .» فقدم لها الشراب وباسطها معابثاً قائلًا : « أنا والله اتحمل وزر هذا الشراب عنك يا سيدتي .» الى أن طـابت نفسها لما اراده منها ، وكانت بكراً فجزعت لذلك وقالت : « والله ما مسني بشر ، وانما جلبتني بظرفك وحلاوتك وشعرك وما فكرت في رجل قط .» فما زال بها حتى نالها وقال :

وناهدة الثديين من خدم القصرِ
سبتني بحسن الجيد والوجه والنحرِ

غلاميّةٌ في زيّها برمكيّة
مزوّقةُ الاصداغ مطمومة الشعر

فما زلت بالأشعار في كل مشهدٍ
أليّنها ، والشعر من عقد السحر

الخ ...

•

غزله في الغلمان الجواري

هذه ظاهرةٌ أخرى من ظواهر الحضارة ، قد لا تختلف عن
قتها في الاصل ، إلا بمقدار ما يقتضي التقسيم الدراسي ، من
ث انها تقابل **الجواري الغلاميات .**

نلمح اشكال هؤلاء في كثير من مدن العـــالم المتمدن في
رنا الحاضر ، وما هو الا مظهرٌ للخنوثة ، والميوعة ، إن دلّت
شيء فانما تدل على الرغبة في تنويع المشتهيات الجنسيّة . هذا
نف ، نقل لنا عنه صوراً حيّة شاعرنا النواسيّ ، إذ هم بحكم
هم الشاذ ، يمثلون « الرجل المرأة » بما فيها من خنوثة ، وليونة :

موحّدٍ في الحسن ، جلّله بردائه ذو الطّول والقدسِ
شئت قلت خريدةٌ جليَتْ للشّرب يوم صبيحة العرسِ

●

الغزل الخمري

أحب أبو نواس في مطلع عمره « جَنان » وربما غير ج
من لم نقف على تفصيل امره بخصوص الاشخاص الذين تنا
حبه مفصّلًا ، غير أنّ الجدير بالملاحظة هو أنّ اخفاقه في
الحب ، تضاف اليه عوامل اخرى ، ماليّة ، وعائليّة ، وفكر
قاده إلى ما يشبه الاشمئزاز ، والقلق ، فاندفع الى الخمرة ، ر
أنّ التقاليد الدينية تحرّمها ، وقد يكون هذا التحريم حرّ
شاعرنا الممعن في حب الحرية ، والنّفرة من التقاليد ، على
يغرق فيها .

عاش النواسيّ الخمرة ، فاصبحت حاجة من حاجات نفسه
يستطيع أن يحيا بدونها ، بل انقلب حبه لها الى ما يشبه العبا
يخلع عليها صفات الخالق ، لذلك فقد عشقها وخلع عليها بش
آخر صفات الأنثى .

كانت الخمرة واسطةً لتذكر المحبوب ، وإثارة الشوق
فاصبحت بذاتها المحبوب نفسه عند ابي نواس ، لذلك تتلا
غالباً خمرياته وغزلياته ، في تداعٍ متواصل ، حتى كأن ممار

ب أصبحت نوعاً من الوصال الجنسي عنده :

فافترعنا مزّة الطعم فيها
نزق البكر ولينُ العوان

أبِنْ لي كيف صرت الى حريمي
وجفنُ الليل مكتحلٌ بقار

هي العروس اذا داريتَ مَزْجتها
وإن عنفتَ عليها أختُ شيطان

جَننتُ على عذراء غير قويَّة
شديدةِ بطشٍ في الزُّجاج شَموس

بابلي صاف ، مؤنثة طوراً وطوراً تهمّ بالتذكيرِ

فقلت أدِل منها العنان فإنني
لها كُفْءُ صدقٍ ليس من شيمي العسرُ

فأتى خاطبٌ مليحٌ اليه ذو وِشاح مؤزّرٌ بإزار
نَقدَ المهر ثم زُفّت اليه في سراويلها وفي الزّنار

ولإيضاح ذلك ، علينا أن نستحضر أبا نواسٍ وهو يتّشح
ليل مع زمرةٍ من عصابته ليدقّ باب حانةٍ ليهودية ، أو
رانية ، أو مجوسيَّة ، ثم ننظر كيف تهبّ من نومها مذعورةً ،

او توقظ ذويها ليروا من القادم ، لعله من الشرطة ، فيـ
احدهم كوةً يطل منها بعد أن يمسح عينيه مراراً ويحدق
الزمرة التي يقودها ابو نواس فيهش لهم ويبش بعد أن تـ
نفسه ، ويفتح لهم مرحباً مستبشراً ، ثم يبدأون يستعرضـ
اصناف الخمرة ، ويجعلون الكلام الفصل لأبي نواس في نوعـ
فيصمّمون على صنف منها، وعندما يفتح الحانوتي احدى الزجاجـ
يخرون جميعهم سجّداً لعبقها :

« فلم نستطع دون السجود لها صبرا »

إثنِ على الخمر بآلائها   وسمّها احسن اسمائها

ثم يبدأ احدهم الحديث عنها ، شعراً او نثراً ، ويُعد
نواس استاذهم في الطريقة الشعرية الخمرية ، ومرجعاً هاماً
مراجع اوصافها ومعانيها .

●

الخمرية النواسية

يبدأ عادة بوصف طريقه الى الخمارة ، وامتحانه السبل اليها حتى يصل :

« وخمارٍ انخت عليه ليـلا »
« ما زلت امتحن الدساكر دونه »

ثُمّ يعرض الى وصف ذلك الخمار ، او الخمارة ، ويدقق تحليـل نفسه ، وشكل نظرته ، وسحنته ، ثم يتحدث عن مماكسته ، وانتقائه صنفاً دون آخر ، غير ناسٍ ان يصف اوعية الحفظ لتلك الخمرة ، ويجعلها كالفتاة التي يتقدم خطّابها من اهلها ، او كالعروس مع زوجها .

هذا هو القسم الاول من الخمرية عادةً ، يتبعه القسم المهم في دراستنا للغزل وهو ما يتعلق بالسّاقي او الساقية :

من كفّ ذي غنجٍ .
يسعى بها أهيف .
يديرها مرهفٌ .
يسقيكها ظبيٌ .

الى آخر ما هنالك من اوصاف هؤلاء السقاة وما يجري
معهم من الفواحش ، كل ذلك باسلوبٍ خاصٍّ مطبوع
القصة ، وهو اذ يشرب من الكأس خمرةً ، يشرب
أخرى من **العينين والريق** ، ولكل نديم نشوةٌ واحدة ،
نشوتان « شيء خصصت به من دونهم وحدي » .

وقد يبدأ بالغزل ، ثم يثني بوصف الخمرة ، والتغزل
وقلَّ ان وجدت خمريّةٌ الا وهي مقرونة بالغزل، وقد تجاوز
خمرياته الغزلية في ديوانه الستين قصيدة ، ما بين طويلة
ومتوسطة ، وقصيرة .

على ان الغالب فيها تقديم الخمرة ، والتثنية بالساقي ،
الساقية ، باثًّا هنا وهناك آراءه ومذاهبه في الحياة ، وما ور
الطبيعة ، وفي المجتمع ، وقليلًا نادراً في السياسة ، والحرب
والصداقة ، والاخلاق، والعلم ، والزواج ، واللهو ، والطرب
والطبيعة من اشجار ، ورياحين ، وانهار ، وشمس ، وقمر
ونجوم ، وكؤوس ، وخمارة ، وخمار ، مضمّناً تلك القصائد
بعض الابيات الشعرية المشهورة لغيره من الشعراء، تضميناً موفقاً
ينسجم مع جوّ القصيدة الموسيقيّ ، والفكريّ ، وقد يكون
الدافع الى تضمينه العبث والسخرية ، والاستمرار الموسيقي
للوزن والقافية .

ولا يبدأ **بالطبيعة** ، من ازهار ، وربيع ، في خمريته الا

أ ثم يدعو ندماءه الى المعاقرة في هذا الجو الصالح .

القصيدة الخمرية، يتغلب فيها ذكر الخمرة على ذكر الغلام ، الجارية ، وقليلاً ما يتجاوز عدد الابيات في الحب ، عدد بيات في الخمر .

خمريات النواسي الغزلة ، من اقوى مظاهر فنّه الشعريّ ، مخصوصة في هذا الجوّ ، عارية من التوسُّل للمحبوب ، هجر ، والشكوى ، بعيدة عن تلك الكلفة التي يقتضيها المدح الطرد والهجاء ؛ إنها الشعر الذي عاشه بعمق واستيفاء . من ة أخرى يمكننا بها من تصوّر هوى معاصريه ، حتى كأننا هم ، ونشعر بلهاثهم يلفح وجوهنا، فاذا نسي التاريخ ، وهفا قد ، واهمل الراوي، فهذا الشعر وحده تعبيرٌ تام عن وجود لئك الناس ، ينقل في الحروف قطعاً من قلوبهم نابضةً ، لذات من ارواحهم خافقةً ، فاذا الشعر أهم اداةٍ للصدق ، الحضارة والحياة .

نموذج من **خمرياته** بدأه **بالغزل**

غزل

يا ساحر الطرف، انت الدهرَ وسنانُ

سرُّ القلوب لدى عينيك إعلانُ

اذا امتحنت بطرف العين مكتتماً
نداك من طرفه بالسر تبيانُ

تبدو السرائر ان عيناك رنقتا
كأنما لك في الاوهام سلطانُ

ما لي وما لك قد جزّأتني شيعاً
وانت مما كساني الدهر عريانُ

اراك تعملُ في قتلي بلا ترة
كأنّ قتليَ عند الله قربانُ

خمر

غادِ المدام وان كانت محرمةً فللكبائر عند الله غفـر
صهباء تبني حباباً كلما مُزجت كأنه لؤلؤ يتلوه عقي
كانت على عهد نوح في سفينته من حرّ شحنتها والارض طو
فلم تزل تعجم الدنيا وتعجمها حتى تخيّرها للخب دهـ
ببلدةٍ لم تصل كلب بها طنباً الى خباء ولا عبس وذبي

شعوبية

ليست لذهل ولا شيبانها وطناً لكنها لبني الاحرار اوط
ارضٌ تبنّى بها كسرى دساكرهُ فما بها من بني الرعناء إنس

ن بها جلّنارٌ قد تفرّعه آسٌ وكلله وردٌ وسوسانُ
ليلة طلعت بالسعد انجمها فبات يفتك بالسكران سكران

جمعت هذه القصيدة ، على عذوبة موسيقاها ، ونبل معانيها ،
نسجام الفاظها في التراكيب ، جمالاً من شتى الوجوه ،
طلع رائعٌ مثير ، والاسترسال في الغزل بديع ، يخلصُ منه
الخمرة ، ملمّحاً الى انّ الذنب فيها مغفور عند الله ، وهنا
ير الى تحرّج **المعتزلة** بخصوص مرتكب الكبيرة بطريقٍ غير
باشرة ، ويعلن رأي **المرجئة** بصراحة ونغم ، ثم يسترسل في
صف الخمرة ، منفلتاً من جوّها الى **شعوبيته** ، بل الى تلك
الانسانية التي لا تفضل جنساً على جنس الا بما يمتاز به من
حضارة ، وفهم الحياة ، فهم « **بنو الأحرار** » هؤلاء الذين
كسرى منهم ، حيث نبت ارضهم عن جفاف الصحراء إلى
وتها **بالزهر المختلف الالوان** .

واخيراً يشير الى تلك **الليلة الماجنة المعربدة** ، الداعرة اذ
بام سكرانٌ الى سكران ... وقد يسلك طريق القصة في
رض معانيه الخمرية ، والوثب الى تفصيل مواقعه الغرامية مع
جاريته الغلامية التي تصلح للأمرين ... بأسلوب حيٍّ انيق بديع .

أمّا في النموذج الآتي ، فقد بدأ بالخمرة ، واللذة على مختلف
وانها ، مبيّنـاً مذهبه في الحياة « منهتك الستر » واللذة تجمع
خمر والحب والشباب :

« غدوت على اللذات منهتك الستر

وأفضت بنـات السر مني الى الجهر

وهان عليّ النـاس فيما اريده

بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر

رضيت من الدنيـا بكأسٍ وشادنٍ

تحيّر في تفضيله فطن الفكر

مدامٌ ، ربت في حجر نوحٍ يديرهـا

عليّ ثقيل الردف مضطمر الخصر

صحيحٌ مريض الجفن مدنٍ مباعـدٌ

يميت ويحيي بالوصـال وبالهجر »

وكما تفتح الخمرة له باب الغزل ، او يفتح له الغزل باب الخمرة، كذلك الطبيعة تغمر بجوانبها الشذيّة روحه، فيخف الى **كأسه وغرامه** كالطفل المنهمر على حضن أمّه :

« طاب الزمان واورق الاشجـارُ

ومضى الشتاء وقـد أتى آذارُ

وكسا الربيعُ الأرضَ من انوارهِ

وشيـاً تحار لحسنـه الأبصارُ

فانفِ الوقار عن المجون بقهوةٍ
حمراء خالط لونَها اقمارُ

واستنصف الأيّام من أحداثها
فلطالما لعبت بك الأقدار

من كفّ ذي غنجٍ كأنّ جبينه
قمرٌ وسائر وجهه دينارُ

يسقيك كأساً من عصير جفونه
وتدورُ أُخرى من يديه عقارُ

كرخيّةٌ ، كالروح دب بشربها
حلمٌ يداخله حياً ، ووقارُ

في فتيةٍ فطموا الحيا فلباسهم
حلمٌ وليس لجهلهم آثارُ »

استهل النواسيُّ هذه القصيدة بانفتاحٍ مستبشر على الربيع وظلاله، وعبيره، غير واجدٍ شيئاً يتقرب به الى الجمال المطلق، في هيكله القدسيّ ، الربيع ، غير الخمرة ، فيها صلاة روحه المستفيقة ، بهذا يكون قد انتصف من الأيام التي هزّته بنوائبها ، واحداثها .

ثم لا ينسى الساقي الذي يلازم الخمرة في شعر النواسيّ

اللاهي، فهي مراسم تعبّدية ، رسم لها طقسها ، فهي ليست وقفا
على نتاج الكرمة فحسب ، بل مزيج منهـا ، ومن عيني ذلك
الساقي المشعّتين ، وهذه الخمرة كرخيّة ، عتيقـة ، ليست م
تناله ايدي الكثيرين من الناس .

ومن اقوى تعابيره الرائعة، تشبيهها « **بالروح** » اذ لا تترك
مجالاً للعربدة ، والخروج على الطيبة الخلقية ، فشرّابهـا حيي
الطباع وقورون ، اليسوا في جوّ خشوعٍ وعبـادةٍ ؟ لكن
حياء « فتيته » حياءٌ عنيد شذّ عن مألوف الأوضاع الباليـة
والتقاليد المانعـة من أن يعيش الناس حياتهم ، ولكان أصحّ
وضع مكان كلمـة **الحياء** في البيت الأخير **احرار** لكان
المعنى اوضح .

هؤلاء ، ليسوا من اولئك الاجلاف الغلاظ سكان الصحراء
الأعراب، بل هم حلماء متحضّرون انيسون ، **فالربيع، والخمرة**
والساقي ، **والندامى** ، **والايام** ، **والنبل** ، اجواء هذه القصيـدة
المترفة ، المتعددة الخصائص والألوان .

وهذا نموذج آخر بدأه بذكر الخمر :

خمرة

« بكـّر صبوحك بابنة الكرمِ   بمدامـةٍ تعدي على الغم
منفيّـةُ الأقذاء صفّقهـا   كرُّ الليالي البيض والسُحم

زال يجلوها تقادمُهـا حتى اغتدت روحاً بلا جسم
كأنما اجفان شاربهـا مطروفـة بتلألؤ النجم

غزل

سعى اليك بهـا اخو هيف عذب الشمائل طيّب اللثم
و وجنـة خجلى مورّدةٍ وقفت على التقبيل والشمّ

ما اطيب هذه الخمرة التي تنفي الهموم ، لصفائها ، وقدمها ، كأن شاربها يحمل عينين مترجرجتين كالزئبق ، يديرهـا غلام ذب أهيف ، وجنته المورّدة موقوفة على الشمّ والقبلات .

وقد يزيد تقديس الخمرة ، فيقدمها غير واحد من السقاة ، لذا أخ ٌواخته يديرانها على النواسي وعصابته ، ثم هم لا يشربونها ت عشرٍ ، لأن الكرم يكون حديث عهـدٍ بفراقها ، بل يدها شمطاء من بنات كسرى،يسبّح شُرّابها بحمدها خشّعاً، هم لشربها يتمتمون كأنهم عرب عجمُ .

وما اطيب هذه المقاربة اللفظية بين الاخ واخته الساقيين ، و « **معن** » وهي « **نعم** » :

ولا تسقياني بنث عشرٍ فانهـا
كما عصرت لم ينس فرقتها الكرمُ

ولكن عجوزاً بنت كسرى قديمةً
معتقةً قد دبّ في طيّها الحلمُ

اذا ذاقها شُرّابُها بجّلوا لها
بألسنهم شكراً فهم عربٌ عجمُ

يدورُ بها دعجاء رودٌ وادعجٌ
اخٌ واخته في القوم، واسمهما اسمُ

يقال له « معنٌ » فإمّا نكسته
لتدعو اخته فمنكوسه « نعمُ »

•

الغزل التقليدي

تحتوي قصائد أبي نواس المدحية والهجائية على غزلٍ تستهلّها به ، اذ أنّ استهلال القصائد بالغزل ، على اختلاف موضوعاتها ، وأغراضها ، تقليدٌ سار عليه العرب في جميع عصورهم الأدبيّة ، لأنه مفتاح القريحة على زعمهم ، كما فعل جرير قصيدته المسمّاة بالدامغة ، والتي مطلعها :

« أقلي اللوم عاذل والعتابا »

يظهر في هذا الصنف من غزله ، ميله الى الغريب أحياناً ، ذلك الا لأنّ جوّ القصيدة متكلّفٌ يحمله على التكلّف بناء الشعريّ .

بدأ مدحته للعباس المنصوري بسبعة ابيات غزليّة ، ثم وصف الصحراء ببيتٍ واحد ، والناقة ببيت آخر ، ومدحه باربعة ابياتٍ فقط .

ومما يُدهش ، أنه مدح الفضل بن الربيع بقصيدةٍ استهلّها لاميّةٍ فاضحة ، الشيء الذي يشير الى تسامح الناس في مثل ذلك :

«يا ربعُ شغلَك ، إني عنك في شغل
لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي

عليّ أذنٌ وعينٌ من مذكّرةٍ
موصولةٍ بهوى اللوطيّ والغَزَلِ

كلاهما نحوها سامٍ بهمته ،
على اختلافهما في موضع العمل »

ثم ذكر بعد ذلك ثلاثة أبياتٍ في المدح .

وقد تزيد أبياته الغزِلة على ابياته المادحة ، مما يُعبّر ع
اضطراره الى المدح ، الذي لا يعبّر عن حياته وشخصه تماماً
ومدحته في « **العباس** بن الفضل الربيعي » التي مطلعها :

« أما وصدود مخمور » من هذا الصنف ، حيث تغز
بخمسة ابيات ومدحه **بثلاثة** .

كذلك مدحته في « موسى بن الفضل الوصيف » فقد مهد
بعشرة ابيات غزِلة ، وذكر **المدح** في ستة ، ومطلعها « طا
الهوى لعميده » .

على أنّ ابدع مطالعه في الغزل التقليدي قوله في مدح
للحسين النيبختي :

« يا قمر الليل اذا اظلما
هل ينقص التسليم من سلـّما ؟

قد كنتَ ذا وصلٍ فمن ذا الذي
علمك الهجران ؟ لا علـّما

إن كنتَ لي بين الورى ظالماً
رضيتُ أن تبقى وان تظلما »

☆

على كل حال ، لم يعدمْ ابو نواسٍ شخصيته في غزله التقليديّ ، بل هي تشير الى قائلها بوضوح وتحديد .

ومن اجود **غزله** التقليدي ، ما جاء في قصيدة **هجائية** حمل لى الأعراب وبرّر فيها حبه للغلمان :

« كأنّ ثيابه اطلعن من ازراره قمرا
بوجهٍ سابريٍّ لو تصوّب ماؤه قطرا
يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا »

خصائص الغزل عند ابي نواس

محصول ما عرضت من شعره ، وفنه البارع ، يعطينا ع
هذه الخصائص :

١ً دقة الملاحظة :

من ابرز خصائصه دقة الملاحظة في عرض صور الاشيا
وحالاتها ، فهو محلّلٌ نفسيٌ بارع ، للغلام والجارية والخمّا
والخمّارة ، معتمـداً على **قوة التمثيل** التي تجعله استاذاً ل
الرومي ، إلى خيالٍ لطيف مُستوفى ، يربطه بوقائع الأشيا

٢ً الاحساس المركب :

يكاد يبلغ درجة الادهاش بتنوّع احساسه ، وتعدد جوا
فهو لشدة تعلقه بمن يهوى « يأكل بسبعة امعاء لو ظفر ب
« ويشرب ماء العناقيد في ظل العناقيد » ويعاقر الخمرة بك
حواسه ، فمه ، وعينه ، وانفه ، ويده ، ثم يريد ان يسمع اس
باذنه « وقل لي هي الخمرُ » ، ثم هو يريد من جاريته
تكون غلاميةً « تصلح للّوطيّ والزاني » ومن غلامه أن يكو
مخنثاً « كأنه عند رأي العين عذراء » .

وهو مع اعتباره ظرف المعشوقة وادبها ووفاءها او هجرانها،
يكتفي بها وهي في حال واحدةٍ مخصوصة، بل يريدها نموذجاً
مصوّراً من كل اجناس البشر، وجميع صفات جسد الانثى،
ويصوّر لنا هذا الاحساس الخصب الغريب بمادّيةٍ مستوفاةٍ تضعه
جانب **المثّالين بالرُّخام** الذين لا يتفوّقون عليه بالتّعبير
ناطة اعضاء المرأة، اكثر مما عبر بالكلام عن خصائصها الجسديّة:

بصرت من حيني روميّه تقصر عنها كل امنيّه
...ريّة الظرف، وشاميّةُ الحلوة في نكهة زنجيّه
...دية الساقين، تركيّةُ الساعد في قدّ طخاريّه
...ية الحاجب، نوبيّة الفخذين في زهو عباديّه
...ريّة الحسن، كنانيّة الأرداف في ليّة عاجيّه »

٣ً قيمة حاسة البصر في شعره :

العينُ اكثر اعضاء الحواس أثراً في غزل ابي نواس، فهو
...ةً يدمن النظر في وجه الجميل، فيرى تجدد حسنه في كل لمحة:

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا
الحسن في كل شيء منها معادٌ مردّد

وتارة يخفض بصره الى الأرض خوفاً من ان ينقل الفتنة
...ل قلبه :

منحت طرفي الأرض خوفاً لأن أجعل طرفي عرضةً لل
اذ كنتُ لا انظر من حيث لا أنظر الا نحو وجهٍ حـ
يزرع قلبي في الهوى ثم لا يحصل في كفّيّ غير الحز

هو كالفراشة لا تعيش الا على الزهر ، وزهو الأشعة ،
أنّ نهايته تتفق ونهاية الفراشة التي تفنى وهي تنغمس مختلجة
شعاع السراج ، والأبدع من ذلك هذه الصلة القويّة بينه و
الحسن فعينه لا تقع الا على جميل كأنها تعاقدت معه، حتى
نظر دون قصد، فقد جعل للجمال وجوداً عاقلاً ، ولعينه صو
الوفاء لذلك الجمال .

كذلك فهو يتأمل عين الرسول الآتي من عند الحبي
فيشاهده في عين الرسول كما مرّ معنا ، وقد تحسد اعضاؤه ع
لتفردها برؤية الحبيب :

فديتك لم انلك بغير طرفي فكلي حاسدٌ طرفي عليك

وقد ينحي على هذه العين باللائمة :

انت يا عينُ كنت لي للصّبابات سلّمـــا

وهو يعشقُ العيون المريضة كالاقدمين :

مريضةُ جفن العين غير مريضةٍ متى يرها صاحٍ تدعه متيّ

وقد تتحكّم عين الظبي في آجال الناس :

وظبي تقسم الآجالَ بين النـــاس عيناه

واحياناً تكون هذه العين قدريّة تشارك في جدال الفرق المذهبية :

فإن عاتبتها فيه أحالتني على القدر

وزيادةً على ذلك فهي تعلم الغيب :

فاختلجت عيني فأبصرته كأنّ عيني تعلم الغيبـا

كما انّ عين غلامه تعلم ما في النيات ، فهي من البارعات في التحليل البسيكولوجي :

ويمتحن الصدور بمقلتيـــه فينكشف البريء من المريب

وتارةً تكون العين مصيدةً يختبىء فيها هاروت السحر :

وقاعدٌ هاروتُ في طرفه يغتصب المقبل والمدبرا

وقد تشبه الخنجر من حيث الجرح :

واذا اقبل كادت أعينٌ نحوه تجرح فيه بالحدق

واحياناً ينسب الزنا الى طرفه :

عفُّ الضمير ولكن لحظه زان

وقد يرمز بالعين الى الجارية من باب تسمية الكل باسم الجزء

عليّ عينٌ واذنٌ من مذكّرةٍ الخ ...

وللعيون لهجات خاصة في الإفصاح والتعبير :

مررتُ به فكلمني بطرفٍ يُخيّل فيه شيطان مريدُ

وهاك صورة حيّة لعين الخمّار المرتابة :

فأدبر كالمزورّ يقسم طرفه لأرجلنا شطراً وأوجهنا شطر

واما الساقية فهي تستخرج بنظرتها كوامن النفس :

من كفّ ساقيةٍ يستلُّ ناظرها لدقة الفهم ما اوحى به الواحي

وقد تُجمِل العينُ خصائص صاحبها الخلقية والدينية :

فطانةُ زنديقٍ ولحظةُ قينةٍ بعين الذي يهوى ومنية عاشق

وقد تكون مستبدةً طاغية :

تبدو السرائر إن عيناك رنّقتا كأنما لك في الاوهام سلطان

وتارة تكون رحيمةً بقلوب الناس :

وهو عفّ الجفون في النظر العمد حـــذاراً على فؤاد النديم

وكما احلّ هاروت في عين الحبيب أحلّ مكانه مرة اخرى عقرباً :

يا من له في عينه عقربُ   فكل من مرّ بها تضربُ

ثم يرفعها الى اعلى المراتب في نظره :

كانت الخمر للألباب سالبةً   فان عينك تجري في مجاريها

واخيراً لغتها لغةٌ مقدسة تسجد لها سائر اللُّغات :

ذي لغة تسجد اللغات لها ...

٤ً شاعر الهجران :

يعتبر ابو نواس شاعر الهجران، فهو كثير الشكوى في غزله
غلاميّ والنسائيّ، ويرجع ذلك في الغالب الى نفسيّته التي ترغب
سرعة الوصول الى المحبوب ، والحب درب محفوف بالشوك،
الصبر ، والألم ، لذلك شكا وبكى .

٥ً استاذ مدرسة للحب :

ابو نواس استاذ مدرسةٍ للحبّ بأنواعه المختلفة من حادٍّ ،
معتدلٍ ،وشاذ ، وشهويّ ، واستلطافي ، وعاش هذه الانواع
عقله ، وقلبه ، وجسده ، فخلق آفاقاً تامة الالوان لعبادة
الجمال ، عبادة الفنّان لذاته ، ولموضوعه ، متخذاً لذلك عدة
اساليب ، أشاع فيها ظرفه ، ومجونه ، وصدقه ، وحريته ،
فكان ترجمان القلب البشري بحقّ ، ولن يضيره تلك المسحة

المادية في غزله ، والتحسّس الشهويّ ، فأيّ فن من الفنو
منذ عهد اليونان اساتذة العالم الى العذريين والصوفيين ، لم ت
نقطة الاساس فيه هوىً واحساساً بالجسد؟ من تلك الأسا
النواسية التوسل الغرامي ، والقصة كعمر المخزومي ، محا
احياناً الشعراء الفرسان ، واحياناً العذريين كالمجنون ، وعر
الا أنّ حب النواسيّ سريع التعلق، سريع التنقّل كالضيف

٦ً حيويته بغزله الغلامي والنسائي :

كاد الناقدون يجمعون على ان غزله الغلامي يمور بعاطفةٍ اص
من غزله النّسائي ، الا فيما يتعلق « بجنان »، والحق انه لم ي
حيويّته في القسمين فهو دائماً مشبوب العاطفة، ناشط الاشوا
بشكل عجيب كأن يومه يأخذ من غده ، لذلك لم يعش طوي

٧ً التوسُّل الغرامي :

رسائل ابي نواس الغراميّة ، اما للتذكير بوعد، او للعتا
على هجران او صد ، أو للموافاة، وهو يتخذ صفة **المعلم** في الخ
والخمريات وآدابهما، فكما يوجّه الشارب في طريقة الشرب
الطعام ، ولدى المنادمة ، ويحدّد عدد المنادمين ، ويصف كي
يتحدثون، ويتناقلون، وما يُستملح وما يستكره بهذا الخصوص
كذلك يرسم لنا كيف يخاطب المحبوب بتعطّف وتذلّل
وكيف يُستدرجُ ان كان عصيّاً بالخمرة ، وطريقة المفاتحة

والاسترضاء ، والاعتذار ، والاستعادة .

ورسائله الغرامية على انواع ، منها ما كان مشافهةً ، ومنها كان كتابة، ومنها ما كان بإشاعةِ أبيات تبلغ المحبوب بشتى طرق ، واحياناً تكون الرسالة بالاشارة ، فالعين وحركات وجه ، واليد، رسل امناء عند ابي نواس .

الرسائل النسائية :

أتاني عنــكِ سبُّك لي ، فسبّي
اليس جرى بفيك اسمي ؟ فحسبي

وقولي مــا بدا لك ان تقولي
فما ذا كلـُّـــــه الا لحبّي

هذان البيتان من رسالة الى « جنان » وقد ملّت ملاحقته اياها ، نسبها الصولي في اوراقه خطأ الى علية بنت المهدي :

« ارسل من اهوى رسولاً له   اليّ والمنسوب محبـوبُ
فقلت اهلًا بك من مرسلٍ   ومن حبيبٍ زانه الطيبُ
جمشته في كلمة فانثنى   وقال هذا منك تجريبُ
مثلك لا يعشق مثـلي وقد   هــام به بيضـاء رعبوب
وجاءت الرسل بأن آتنـا   فجئتها والقلب مرعوب
قالت تعشقتَ رسولي لقـد   بدت لنا منك الاعاجيبُ

من يأمن الذئب على معزةٍ اهـلٌ لأن يخفره الذيب
فقلت في رفقٍ وفي تودةٍ مقالةً قد قال يعقوبُ
الذئب لا يؤمن لكنه عليه في يوسف مكذوبُ »

هذه قصةُ مراسلة ، تقع حوادثها متكررة بينـه وبين من يهوى، وهي سهلة اللفظ، واضحة المعنى، اشبه ما تكون بالحديث المتداول ، ومن ألطف ما فيها دفاعه عن نفسه منكراً الواقع واستناده الى القصص القرآني في القسم الاخـير ، اذ عرض ا قصة يوسف النبي ، ومن رسائله الشفوية قوله :

«قل له ذقْ، لو علمتَ بأمري لم تبدّل قطيعةً بتصاب

وقد تصل الرسالة فلا ترد الحبيبة جواباً ، فيكتفي بتأميل أن تكون هي نفسها الجواب :

رسولي قال اوصلت الكتابا ولكن ليس يعطون الجوابا
فقلت أليس قد قرأوا كتابي فقال بلى ، فقلت الآن طابا
فأرجو ان يكونوا هم جوابي بلا شك اذا قرأوا الكتابا
اجد لك المنى يا قلب كي لا تموت على غماء واكتئابا

في هذه القطعة روح ابي نواس السمحة ، ولكنها كسالفتها تجنح الى الركة العامية ، كما أشار الى ذلك بروكلمن آنفاً ، فالركة ظاهرة في استعمال قرأوا ، يكونوا ، بصيغة الجمع مع ان

المخاطب مفرد ، وحذف فاعـل « طابا » وتقديره « قلبي » وفي نصب « اكتئابا » بدلاً من جرها . وقال يستبطىء انجاز الوعد، ويتعجل الموافاة :

جفن عيني كاد يسقط من طول ما اختلج
خبريني فدتك نفسي متى الفرج
كان ميعادنا خروج زيادٍ وقد خرج

وقد تكون المراسلة على فصوص الخواتم :

كتبت عـلى فصٍّ لخاتمها	من ملّ محبوباً فلا رقدا
فكتبت في فص ليبلغها	من نام لم يعقل كمن سهدا
فمحته واكتبت ليبلغني	لا نام من يهوى ولا هجدا
فمحوتُه ثم اكتتبت : «انا	والله اول ميتٍ كمدا »
فمحته واكتبت تعارضني	والله لا كلمته ابـــدا

وقد يشير الى خاصة عربيةٍ قبليّة في استكناه الغيب من حيث زجر الطير ، مبيناً لهفة الرسول ، قارئاً حقيقة الجواب في وجه الرسول :

زجرت كتابكم لمـا أتاني	بزجر سوابح الطير الجواري
نظرت اليـه مشدوداً بزيرٍ	وفي ظهر ، ومختومـاً بقـار
فقلت الظهر احور قرطقيٌّ	يشبّه شكله شكل الجواري

وقلت الزير ملهاةٌ لِمُلْهٍ وطين الختم من زق العقا
فجئت اليكم طرباً مشوقاً فما اخطأت داركم بدا
فكيف ترون زجري واعتيافي الست من الفلاسفة الكبار

من أطيب معاني هذه القصيدة تداعي المعنى بين طين الختم وطين زقّ الخمرة ، ثم اهتداؤه الى دار المحبوب دون دليل ثم تلك الدعوى الطريفة انه من الفلاسفة الكبار، كذلك اشارت الى شيء من التقاليد والتاريخ من كون الغلام « مقرطقاً »

وهو يحبّ المحوَ في الكتاب ، فإذا كان من قِبله ، فهو اث من آثار الدموع ، واذا كان من قِبلها ، فهو إشارة الى الخطأ هذا الخطأ محبوبٌ لديه لأنها تمحوه بلسانها ، فيلحسه بعدها بلسان فكأنه يقبّلها من بعيد :

غضبت لمحوٍ في الكتاب كثيرِ
قالت اراد خيانتي وغروري

كتب الكتاب على خلاف ضميره
فالمحو فيـــه لكثرة التغيير

الى ان يقول مبيناً لها السبب الحقيقي في المحو :

فالمحو من قِبل الدموع وانما تجري دموع العاشق المهجور

ثم يخاطبها بقوله :

كثري السهو في الكتاب ومحّيه بريق اللسان لا بالبنان
أنني كلما مررت بسطرٍ فيه محوٌ لطعته بلساني

وكما قدمنا آنفاً انه يراها في عين الرسول :

كلما جاءني الرسول لها رددتُ شوقاً في طرفه نظري

واحياناً ترد الحبيبة ردّاً قاسياً فيقرأ ذلك في وجه الرسول :

ولو ردت جنان رد خير تبين ذاك في وجه الرسول

وقد يُلزمها الحجة بمخالفتها القرآن اذا رفضت رد الجواب
انه يسأل الجواب كالسائل :

يا ناهر المسكين عند سؤاله الله عاتب في انتهار السائل

وبعثت اليه جارية من جواري المهلب وصيفتها فجمّشها
كتبت اليه تلومه ، فأجابها :

زعم الرسول بأنني جمشته كذب الرسول وفالق الاصباح
شغلي بحبك يا مليحة ، ليس لي قلبان مشغول وآخر صاح

واخيراً ، فهو لا يترك الرسول دون أن يصفه ، من حيث
الذكاء ، والنشاط ، والتستّر ، ومن حيث جماله :

طرفُ الحديث كأنّ منطقه لولا خلابةُ عينه عسلُ

ممن عليــه عباءةٌ وترى افعاله كالنــار تشتـ
لا يحْفلون بــه اذا خرجوا بالابتذال ولا اذا دخـ
وترى اذا عقدت عزيمتــه غير اسمــه في القوم ينتـ
بأبي وامي ذاك كيف بـدا صلى عليــه الله والرسلـ

الرسائل الغلامية :

واما رسائله الغلاميّة ، فهي اقل عدداً وتنوعاً من رسا
النسائية ، نظراً الى سهولة مقابلة الغلمان ، والى تحجّب النسا
وصعوبة مفاتحتهنّ بالحب في غالب الأحيان ، وهذا غلام يـ
كما سبّته « جنان » قبلًا ، ولكنه يتاجنُ عليه ويعابثه معابثـ
ظريفةً :

يا كاتباً كتب الكتاب يسبني من ذا يطيق براعة الكتّابـ
لم ترض بالاعجام حين كتبته حتى شكلت عليــه بالاعراب
أحسبت سوء الفهم حين فعلت ذا اولم تثق بي في قِراءة كتابـ
لو كنت َقطّعت الحروف فهمتها من غير وصلكهنّ بالأسبابـ

وربما جفاه وتناساه غلامه :

جفــاني وتنــاساني بعيد الرسل والكتب
ومن غاب عن العين فقد غاب عن القلبِ

وهو كما نرى عشق سطحي ، لم ينفذ الى شغاف القلب .

ومرةً يكون اختلاج عينه رسولاً ينبىء بقرب المحبوب :

فاختلجت عيني فأبصرته كأنَّ عيني تعلم الغيبا

ومرةً تكون الريح الشماليةُ رسولاً بينهما :

حب الشمـال اذا أقبلت لأن قيل مرت بدار الحبيب
اء قليل ، وحزنٌ طويل تُلقّي الرياحُ بما في القلوب

موسيقية أبي نواس :

غير خافٍ أنّ الغناء رفيق الوجدان البشريّ منذ بدء
الخليقة ، وأنّ الشعر العربيّ غنيٌّ بعناصره الوجدانية ، واصلح
ما يكون للغناء ، لذلك ازدهر هذا الفن في الحجاز ايام بني
مية ، وعرفنا كيف كان الناس يقبلون على السماع إقبالهم على
العبادة ، واخبار سلاّمة ، وجميلة ، والميلاء ، والغريض ،
معبد ، وابن سريج ، وابن عائشة ، مشهورة طفح بها كتاب
الأغاني ، وكان لهم اكبر الأثر في شعر المخزومي ، والعرجي ،
والأحوص ، ما ذلك الا بسبب الرقيق ، والجواري ، اللواتي
أشعن جوّاً من الترف والمجون لم يكن للعرب علم به قبلا ،
اذ كان هؤلاء الجواري من الموالي او من تلاميذهم . ولما تقدم
الزمن بالناس الى العصر العباسيّ ، وانتشرت التراجم ، وضعوا
لهذا الفن قواعد واصولاً ، شأنهم في شتى العلوم والفنون ،
فكان من جرّاء ذلك معلمون لهذا الفنّ ، لم تقل مرتبتهم

في قصور الخلفاء عن مرتبـة الحجاب والوزراء ، حتى انّ ا
الخلفاء عنوا بهذا الفنّ وشهر من بينهم « ابراهيم ابن الخلي
المهدي، واخته عُليّة بنت المهدي». ومن اشهر مغني هذا الع
الموصليّان في الشرق وتلميـذهما زرياب في الأندلس ، الل
تحكم في الأذواق والتقاليد كمربٍ للحاسّة الاجتماعيـة ، ش
المغنين الآخرين في بغداد، قال بروكلمن: « وقد قُدّر للمغنيا
اللواتي لعبن دوراً عظيم الأهمية ، في حياة بغداد الاجتماعيـ
أن ينهضن بالنصيب الأوفى من خدمة الغزل الجديد، ونشره
الناس ، شأنهن من قبل على عهد الأمويين في مكة والمدينة »

ومن حسن حظ النواسي أنّه كان ضارب عودٍ مجيـداً
صديقاً لاعلام هـذا الفن الموسيقيّ في عصره ، واحد كوا ك
الحفلات اللاهية في قصر الرشيـد ، والأمين ، والخصيب ،
كثيراً مـا كان يجمع في شعره الغزلي ذكر اللهو ، ومن الل
الغنـاء ، فالموسيقى اختُ الخمرة في إثارة الذكريات ، وايقا
الحواس ، وتنبيه الغرائز :

فاستنطقِ العود قد طال السكوتُ به

لا ينطق اللهو حتى ينطق العودُ

اللهوُ شاملٌ لكل ما يتعلق بالغناء ، والمغازلة ، والمعاقر
والرياضة ، فهو تدفق الحيوية البشرية ، لتعبّر عن الغريزة بش
الأنواع ، لتنفتح على الوجود بأغنى ما فيه من انطلاق ومتعة

ولا ادلّ على عناية المغنين والمغنيات بشعره وتأثرهم به من
الإقبال على نشره وتلحينه ، وترديده في ساعات الانطواء
النفس ، فهو احـد عبّاد الحياة والجمال الذين لا نعرف لهم
لا ، فهؤلاء شعراء العرب جميعهم عاشوا في حدودٍ رسمهـا
تمع ، اما هو فقد كان وحده عالماً للمتعة والانفتاح ، جرى
أذهان المتأخرين مجرى الحياة في الاحياء ، فهذا احد تلاميذه
عاء يترنم :

ع الأيام تفعل ما ارادت — اذا جادت بندمان وكاسِ
بارتِ مريم » والصحنُ فيه — حديّقتان من ورد وآسِ
ظبي في لواحظ مقلتيـه — نعاسٌ من فتورٍ لا نعاسِ
خلٍّ لا يحول عن التصابي — ذكور للمودّة غير ناسِ
محتضنٍ لطنبور فصيحٍ — يغنيني بشعر « ابي نواسِ »

وقد وجدوا بعد موته في بيته « عوداً وطنبوراً » .

وكان على عادته في استيفاء المتعة ، وتعددها ، وتنوعها ، يحبّ
سّماع على عدة آلات ، بما يدل على نمو حاسته الفنية وغِناها :

فاشربْ هديت وغنِّ القوم مبتدئاً
علـى مساعدة العيدان والنـاء

وغنني قـد اجاب العود شائقـةً
وحرك الناي مني بعض وسواسي

ولقد كثرت الآلات الموسيقية في عهد ابي نواس
ملحوظة ، اخذوا اكثرها عن الفرس ، والروم ، والهند ،
آلات للنفخ ، ومنها آلات وَتَرية .

ولا شكّ ان عصراً يكون فيه شاعر كالنواسي ، و
كالموصلي ، وعواد « كمنصور زلزل » ، وزامر « كبرصو
صاحب الناي ، وطبال « كجعفر » ، وغيرهم ، لا شك في
من اغنى العصور لهواً . وإني اذ أعرض هـذه القطعة الش
الآتية، التي تتفجر نغماً ، كأنه حنين النفس العميقة الى الا
الى المجهول ، يكاد يكون وحده موطّئاً بها للموشحات :

« سلافُ دن كشمس دجن كدمع جفن كخمر
فاحت بريح كريح شيح يومَ صَبوح وغيم
يسقيك ساق على اشتياق الى تلاق بماء
يا من لحاني على زماني اللهو شاني فلا تل

هــــذا شعرٌ من اوتار القلوب ، واستدارة الذيول ، و
الأعطاف ، ولهاث الخمر والقبل السكرى ، ولا اغالي اذا ق
إن هذا الشعر تزحلق على لسان ابي نواس دون وعي ، في
تمور بالألحان ، في احـد القصور المترفة السامرة ، ولا شك
قارئهـا يغيبُ في نجوى حلمٍ من الف ليلة وليلة ، ويتما
في الترتيل .

والمتفحص شعره يقع على هذه الذائقة الموسيقيـة ، الم

عام في قصائده الخمرية والغزلية بصورة خاصة .

تلاحظ قصائده الغزلة في الديوان من ص ٣٦١ الى ص ٤٢٦ ،
خمرية من ص ٢٤٠ الى ص ٣٢٤ .

٩ً حب الطبيعة في شعره :

في شعر الطبيعة ملحوظ في الأدب العربي على اختلاف
شعوره ، لصلة الطبيعة بالنفس البشرية ، ولأنّ شعر الغزل
يستند في اكثر عناصره الى مقابلة ما للمحبوب ، بما في الوجود
جمال ، فالطبيعة هي الأنثى الكبرى ، الأم ، التي تشتمل
الحياة ، بما فيها الانسان ، والحيوان ، والنبات ، وما يتعلق
، من حقول وجبال ومياه ، ترمز كلها الى الحيّ الأكبر
طلق ، الله ، والشاعر يستمد من الطبيعة عناصر وحيه ، كأنّ
ا احرفاً للتعبير ، الى جانب الأبجديّة .

فالأماسيّ والأسحار ، والنخل والكروم ، والطيور ،
كلاب الصيد ، وفصول العام ، والظلال والرياحين ، والمعادن
كريمة ، والليل والنجوم ، والخمرة ، والمياه ، كلها عناصر
يلة للتعبير في شعره الغزلي :

ومليح القد ، قد فاق الظبا حسناً ولينا
تحسب الوردَ بخديه يناجي الياسمينا

يا شمس تفرع في قضيبٍ ودعص نقا ترجرج في اعتدال

في البدر من صفحته لمحـةٌ ولمحةٌ في الظبي من طر
كم ليلة ذات ابراج واروقةٍ كالْيم تقذف امواجـاً بأمر
سامرتها برشاً كالغصن يجذبـه دعص النقا في بياض العاج رجر

يكفي ان نلاحظ ديوانه في القصائد التالية :

اما ترى الشمس حلت الحملا ص ٣
فالريح عنبرةٌ والطعم فلفلةٌ ص ٤
اما رأيت وجوه الأرض ص ٧٠
حاك الربيع
وكسا الربيع . ص ٠
الخ ...

لنرى مبلـــغ عنايته في الاتـكاء على الطبيعـة ، وان لم يـ
بذلك مبلغ اعتبارها كائناً حيّاً ينغمس بروحه في عبابهـا
بصوفيةٍ يفلسف معانيها ، ويبثها قلقه ، ويسكر بخمرتها الما
الكون صوراً ، بل الطبيعة عنـده ، اداة للتعبير ، وسبـ
للانشراح ، ومشابهة الحبيب ، ومجال للّهو والشراب والغزل

●

مقدار ابي نواس

من استعرض شعر ابي نواس ، يدهش لتنوع آفاقه ، وقوة شخصه، وروعة فنه ، ليس ذلك عائداً الى موضوعاته من خمريات وغزل ، بل الى تلك الآفاق التي فتحها للشعر ، على الحياة ، وتعدد تلك الخصائص الفنيّة الغنيّة ، من ذلك أنّه بوجه عام :

١ً متعبد للجمال :

أحبّ ابو نواس الغلمان ، والجواري ، والخمر ، والخمار ، والنديم ، والفتّاك ، والماجنين ، والزنادقة ، والرهبان ، والزهاد ، والشعراء ، والمغنين ، والمُلهين ، لم يقصر محبتـه على الجسد وإن كان هـــذا سبيلاً الى غيره ، بل تعداه الى نفس النديم ، وظرف الجارية ، ولطف الغلام ، وفطانـة الزنديق ، وفتوة الشطار ، واحبّ السّلام للناس ، والصدق ، والحق ، والطبيعة ، فهذا الوجود كله جو للمتعة والحُسن ، واحبّ نفسه التي تجمع ما في الانسان والوجود حبّاً جعلها مثلًا للانطلاق ، للإنسان ، لأجمل ما في الانسان ، قلبه وعقله ، فاذا اطلق صفات الالوهة على الجارية والغلام والخمرة ، فما ذلك الا أنه يُصَلّي للجمال

الذي هو غريق في موجه :

فلم نستطع دون السجود لها صبرا
وسمّها احسن اسمائها
فلو انا جحدنا الله يوماً لعبدناهُ
اظمأت عبدك حتى ما به رمق

٢ً من رواد الحرية :

قلّ ان يخلو كتابٌ من الكتب التي درست ابا نواس من ذكر شذوذه ، وتخطيه للتقاليد ، ولعمري لو خلت الدُّنيا من ثوار الفكر والرّوح ، من هؤلاء الجبابرة المتقدمين ، لبقيت قافلة الانسانيةِ في مكانها ، وما هذا الشذوذ الذي نُعت به صاحبنا إلا نتيجةُ تمادٍ لتطورٍ سبق عصره .

اننا لا نطلب من ابي نواس ان يسنّ لنا مذهباً في السياسة والاجتماع ، اذ ما هذا مقصد الشاعر ، ولكننا نأخذه بأن يعبّر لنا عن كل هذا ، عن الروح التي بها توجد حضارةٌ ما ، فالتعبير بحرية عن الحياة يعدل اثمن ما في الحياة ، وهكذا كان ، فقد اعطانا النواسيّ صورة عن هذا العصر الحرّ ، بالنسبة الى ما قبله وما بعده ، ولذلك جعل همّه العناية « ببني الأحرار » الفرس ، فتعصب لهم ، وكان شعوبياً لأنه حرّ :

وإن عذل العواذلُ لستُ ممّن يجانبُ لذةً حذر الأنام

امٌ كان اوله حلالاً فخلّ الحلّ يذهب بالحرام

ومن مظاهر تلك الحريّة التي أغرم بها شاعرنا هذه الأبيات اوردها صاحب الوساطة وصاحب الحان الحان :

« قد غنينا عن الشتاء وعن اللبس والفراء
وعن الحشو والعمامة والكن والطـلاء
وعن الفرش والغطاء في بيوتٍ بلا كراء
قدم الصيف بالولاية قدامـه الهواء
بالمناديل والغلالة والنعـل والرداء
بالطنـابير والطبول وبالرقص والغناء »

وما نحسب هذه العبادة للحرية ، الا ذات اثر فيما نرى من وقف أبي نواس من التكاليف الدينية ، والتقاليد الاجتماعية :

ربت الخمر في رمضان حتى رأيت البـدر للشعرى شريكا
ال اخي الديوك مناديات فقلت له «وما يدري الديوكا»

عصر أبي نواس في نزوعه الى الحريّة ، أشبه ما يكون عصر رة ، فلم يكن الوليـد الأمويّ ممهداً لأبي نواس في الخمرة ط ، اذ قد سُبقا بشعراء خمريين ، بل كان توطئـةً فيما يتعلق لانطلاق والاستهتار من جهـة الشعر والحياة ، وبدأت من لجوانب الأخرى تضطرب ترجمات الفلسفة ، وتتعقـد مسائل

النحو ، وغيرها حتى اواخر القرن الثاني .

غير أنّ مدلول كلمة الحريّة غامض بالنسبة الى هذا العصر ، اذ لم تكن مربوطة بقانونٍ واضح ، اللهم الا فيما يتعلق بتسامح الخلفاء ، وتطلع الناس الى الأخذ من الحياة بنصيب وافر .

فاذا عرف المعاصرون « الحرية بانها حصول كل فرد في مجتمعه على حقوقه الطبيعية والسياسية ، وان يستمتع بها دون قيد او شرط ، سوى منع غيره مباشرةً من الاستمتاع بنفس الحقوق » فانّ العباسيين كان لهم شيء من هذا ، بدليل تعبيرهم عن عواطفهم بحرية ، وعن افكارهم بحرية ، وهذه المذاهب الكثيرة التي تتعارض مع الدين شاهد على هذا ، لكن تلك الحرية لم تكن تامةً ، واضحة المعالم والطرق .

والذي يهمنا من الموضوع هو الحرية بالنسبة الى فردية ابي نواس ، لنقيسها بتعبير فولتير المشهور بخصوص الحرية :

(La liberté consiste à ne dépendre que des bois)

او بتعبير آخر ، هي الأخذ بنصيبٍ من الوجود كما هو بمراعاة تناسبها مع الخير .

وعلى رأي بعض المغالين ، انها « حالة من يعمل ما يريد ، لا ما يريد الغير » فهي بهذا المعنى انتفاء الالزام .

واما مدلولها عند الاخلاقيين والنفسيين ، فهي حالة الكائن ،

الذي يصمم « بوعي » على عملٍ ما خيراً كان او شراً بعد رويةٍ وتفكير ، وبرهانٍ يبرر ذلك العمل ، وبمعنى آخر ، هي تحقيق الذات بوعي ، بحيث تكون الطبيعة الانسانية موجهة ، بما هو الأفضل فيها .

بهذا، ندرك كيف كان شاعرنا ابو نواس متوفراً على معاني الوعي ، التي تمكّنه من التصميم على الفعل لارادته ، ومعرفته بطرق البرهان على تبريره ، وأنه كان أحقّ من الكثيرين غيره بلقب «الحر» ، وما حياته ، وشعره، الا دليل ساطع على هذا، غير ناسين كلمة « روسّو » بخصوص الحرية ، حيث قال :

« خُلق الانسان حراً ، ولكنه يرسف في القيود والأغلال اينما سار ، بينما يظن البعض انه سيد غيره »، فهي هنا اعتبارية، فقد تكون تلك الوثبات المنطلقة التي ننسبها الى الحرية ، مقيدة بقيود فكرية، وشخصية، واجتماعية، وبهذا نتهافت نحو الجبريّة، التي تغلّ الارادة .

فمثل ابي نواس عند الفقهاء اسير شهوانه ، والفقهاء عنده اسراء جمودهم وغفلتهم عما في الحياة من جوانب متسعة ، ومتع مغرية .

تنتفي كل هذه الاقوال المتعارضة، متى اشترطنا في الحرية، الوعي ، والمعرفة التي تتعلق بشرح الارادة ، وتبرير عملها ، مع عدم التعارض مع الخير العام الذي هو ملك للانسانية ،

فهي ليست انطلاقاً وليست تقييداً ، بل هي افقٌ عـالٍ من **الفهم والتهذيب** ، او الخلق والمعرفة .

بهذا لم يكن ابو نواس جاهلًا ، ولا اسير توجيه الغير ، ولا متحيّزاً عما يراه الخير الى الشرّ ، فكان بكل أعماله على تناقضها في الظاهر كالزندقة ، والزهد ، صادقاً ، والعنصر العقلي فيها واضح ، والتصميم عليها نُفّذ بعد محاكمةٍ :

(ا) واذا وصفت الشيء متّبعاً
لم تخلُ من غلطٍ ولا وهم

(ب) فاعذر اخاك فانني رجلٌ
مرنت مسامعه على العذل

(ج) لا غليظاً تنبو الطبيعة عنه
نبوة السمع عن شنيع الكلام

(د) اذ كنت لا انظر من حيث لا
أنظر الا نحو وجهٍ حسن

فالبيت الاول ينفي تقليد الغير وتوجيهه ، والبيت الثاني يفيد التصميم بوعيٍ على عمل ما هو فيه وله ، والثالث يعطينا صورة عن تلك الذائقة ، وذلك التهذيب الخلقيّ الذي عبر

✲

به ، وعاشه ، والبيت الرابع يشير الى التقيّد بعبادة الجمال على مذهب « روسو » ، والتعبّد للجمال من اسمى مراتب الحريّة .

من مظاهر هذه الحرية ١ً دعوته الناس الى ان يعيشوا حياتهم ، حسب مقتضيات عصرهم ، لا حسب الماضي الفائت ، او الغد الغيبيّ المنتظر ، فهو يعلم الناس الصدق والفنّ معاً ، ويعلمهم العدل ، والخير بطريق غير مباشر ، ويدل الناس على الجميل بألطف من طرائق المعتزلة ، والخوارج ، وما صدقُه ، ومحبته الخير ، لإرضاء الناس ، بل كان ذلك عن تذوّقٍ فنيٍّ واشعاعٍ روحيٍّ ، كالظل عن الشجرة ، وكان أثر ذلك في الاجتماع ، والسياسة ، وحياة الناس ملحوظاً ، وإن لم يكن بالمباشرة .

٢ً **خروجه** على تقاليد معاصريه ، وتعلقهم بالماضي من حيث طرائق المعيشة ، والتفكير ، وثورته على الشعراء المتبعين للقدامى من حيث الوقوف على الاطلال ، وافتتاح القصائد كالجاهليين ، واستعراض حياة البداوة ، وربما كانوا لم يألفوا مضرباً ، او يقودوا بعيراً ، وقد تصبح قصائد بعضهم نوعاً من المومياء ، او اصنام الخشب .

في هذا الخروج **تجديد وثورة** وهما من المع اشعة الحرية :

« لا تبك للذاهبين في الظعن   ولا تقف بالمطيّ في الدمن

وعُجْ بنا نصطبح معتقةً من كف ظبي يسقيكها فطِنِ
تخبر عن طيبه محاسنه مكحّلٌ ناظريه بالفتن
ما أمّت العين منه ناحيةً الا اقامت منه على حسن »

هذه القطعة تظهر لنا النُّفرةَ من البكاء على الاطلال ، والدعوة الى مُتعة الخمر ، ومحبة الغلام ، ذلك الحبّ الذي توحيه اجواء بغداد الحضارية ، ثم ذلك التصوير الممتع للغلام الذي يشير الى السكر الموصول بعبير الجمال ، والرقيّ الروحي المصفّى :

أصبح **التجديد** رسالة ابي نواس ، قلما تخلو قصيدة من قصائده من التلميح والتصريح بهذه المعاني الجديدة ، المجدّدة .

قد عاش « عديٌّ » معاني الخمرة والغزل لنفسه ، وعاش الوليد تلك المعاني ، مدفوعاً بعوامل نفسيّة متشائمة ، مضطربة، محاطة بعوامل سياسيّة مختلفة ، ولكنّ واحداً منهما لم يعشها لعصره ، للحياة ، فتصبح تعبيراً عن وجوده الفردي والوجود الاجتماعي الانساني الآخر ، كأبي نواس ، فهو بهذا وحده من بين شعراء العربية ، واحد القمم في شعر البشر ليكون إنسانياً .

٣ً انسانية ابي نواس :

من قيمه الملحوظة ، هذه الروح الانسانية، المتولدة من تربية نفسيّة خاصة، واحساس مصفّى نبيل، وتململ داخليّ، ينفر

من الناتىء غير المنسجم، ساعدت على كل هذا ثقافة شاملة، وتجارب شعورية وعقلية لم تقف عند الجزئيات بل عملت لما هو أشمل .

لم يكن مغالياً السيّد (Louis Gardet) حين عدّ ابا نواس من جملة الانسانيين المسلمين في رسالته (L'Humanisme Musulman) اذ يقول : « الذين هم بدون ادنى شك ليسوا للجمهور العربي الاسلامي فحسب ، بل هم للمعطيات الفكرية لجميع البشر المتحضرين » . فاذا كان الانسان مقياس كل شيء كما يقول بروطاغوراس ، والانسانية مجموعـة صفات مشتركة بين البشر كالمحبة ، والشفقة كما يشير توما الاقويني ، او انها كائن حيٌّ، لها ما للفرد ، حسب تعبير اوغست كومت ، او انها مؤدى الغاية الاخلاقية والسياسية الشريفة ، التي على اساسها بُنيت شرعة شاعرنا حقوق الانسان أمكننا ان ندرك مدلولها بالنسبة الى المدروس .

واذا اعتبرنا قوله « حبٌّ ما في الناس من حسن » وتسامحه، وكرمه ، وحياته للحب والجمال ، والسلام ، ودعوة الناس الى تذوق الحياة ، عرفنا عندئذ كيف كان بصدقٍ انسانيّاً :

« لنا منـــه بعينيه عداتٌ يخاطبنا بها كَرٌّ الجفون
كأنٌّ الشمس مقبلةٌ علينا تَمشّى في قلائد ياسمين

الى ان يقول :

اقـول لناقتي اذ بلـّغتني لقد اصبحت عندي باليمين

فلم اجعلك للغربان نحلًا ولا قلت اشرقي بدم الوتين
حرمت على البراذع والولايا وأغلاق الرحالة والوضين

هو يحسُّ انّ بينـه وبين **راحلته** صداقة فيريد ان
حريتها ، لتشعر بها مثله :

واذا المطيّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الثرى فلها علينا حرمةٌ وذمام

ظهورها حرام على الرجال ، لا عليه وحده ، فقـد اط
لها الحرية ، وضَمِنَها . ثم انظر كيف عـبر بكلمتي « حرمة
و « ذمام » عن أنبـــل المعاني الشريفة ، بخصوص حيو
مطيع مفيد .

فأين هذه الصورة التي بدأها بوصف غلامـه ذلك الوص
الانيق النضر ، المترع جمالاً ، وثنّاها بهـذا الحس الانسا
الشفيق ، الذي يدركِ ان الراحلة لها حقٌ في الحياة مثله ، و
ساق الحديث عن تلك الراحلة ، ليتمكن من اظهـار مشاع
الحقة نحو الاحياء عامة ؛ اين هذه الصور من صورة الشماخ الذ
يُشرِق ناقته بدم الوتين اذا بلـّغته ممدوحه « عرابة الاوسيّ

كما ان الفرزدق الذي وعدها بالاستراحة — الى وقت ما
من التـّهجير، والسير العنيف، لم يبلغ مبلغ النواسي الذي و
الحرية وضمنها .

ومن مظاهر انسانية النواسي، تلك « **الشعوبية** » التي اتُّهم بها على انها احدى النقائص، وما هي في واقع الحال، الا الميل نحو الأجْمل، والاغنى حضارةً وحرّية :

وما شرّفتني كنيةٌ عربيةٌ ولا اكسبتني لا ثناءً ولا فخرا
ولا تأخذ عن الاعراب لهواً ولا عيشـاً فعيشهم جديب
ومَن تميم ومَن قيسٌ ولِفّهما ليس الاعاريب عند الله من احد

والشعوبية مظهرٌ انسانيّ يقول بتساوي الشعوب، اي عدم تفضيل امة على اخرى، استندت في اصلها الى معنى الآية القرآنية :

يا ايها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

وهي مأخوذة من كلمة «شعب» وهو جيل من الناس اوسع من القبيلة يقول العقد الفريد « الشعوبية هم اهل التسوية » وفي الصحاح « الشعوبيـة فرقةٌ لا تفضل العرب عـلى العجم » وفي « اللّسان » «الشعوبي هو الذي يصغّر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلًا على غيرهم . »

وقال ابن رشيق « وكان ابو نواس شعوبيّ اللســان، ولا ادري ما وراء ذلك » كلمة ابن رشيق شعوبيّ اللسـان، تفيدنا دعوةً الى الشعوبيـة، دون إضمـار بغضٍ لشعب دون آخر

بالقلب ، وهذا تأكيد للروح الانسانية في وجوده .

وذكر بروكلمن « أن علان الفارسيّ النسّاخ في مكتبة بلاط الرشيد ، وضع كتاباً خاصاً حشر بين دفّتيه مثالب القبائل العربية ، فلقب من اجل ذلك بالشعوبي ، اي المدافع عن تساوي الامم بالحقوق » وذكر ضحى الاسلام أن طاهر بن الحسين أجازه بثلاثين الفاً كما وضع ابو عبيدة عدة كتب في ذلك

فاذا كانت الشعوبيّة مذهباً سياسياً وإنسانياً في نفس الوقت، فان أبا نواس عربيّ الأب ، ليست شعوبيّته عنصرية ، بل هي من النوع الانسانيّ المنفلت من قيود العصبية ، فالفرس ليسوا قومه بل هم عنده « بنو الاحرار » .

*

كذلك يمكن القول ان الشعوبية ليست عقيدة ، بل هي نزعة ، تشبه ان تكون محاولةً ديموقراطية تحارب ارستقراطية العرب .

من مظاهر هذه الانسانية ايضاً في تراث ابي نواس ، نُفْرتُه من كل ما يضعف شعور الانسان نحو اخيه الانسان ، هذه الأخوة ، لم يكن مدفوعاً اليها بعامل الدين ، او القانون ، او غير ذلك ، بل بشيء واحد ، هو أنها **جميلة** ، هو أنها عملٌ **فنيّ** ، فالحربُ قبيحةٌ لا يحبها لأنها تصرف عن تذوق الحياة

نتعهـا ، بالوانها المختلفة ، فاذا تَندّدَ بها ، فليس عـلى طريقة
زهير » والمصلحين الاجتماعيين ، بل يعرض لنا وصفـاً رائعاً
لس ٍ خمريّ َغزِلٍ ، ثم يقابله بويلات الأخرى ؛ هو في فنّه
قعيٌّ ، لا يتقيّد بالنصائح النظريّة ، ويقول :

« اذا هيّا ابو الهيجـاء   للهيجـاء   فرسـانا
وسارت غاية الموت   امـام الشيخ إعـلانا
جعلنا القوس ايديَنا   ونبل القوس « سوسانا »
فعـادت حربنـا أُنساً   وعـدنا نحن خـلانا
اذا ما ضربوا الطبل   ضربنـا نحن عيدانا
وانشأنا كراديساً   من الحـيريّ الوانا
واحجـار المجـانيق   لنا تفـاح « لُبنـانا »
فهذي الحرب لا حربٌ   تعمُّ النـاس عدوانا »

هذه صلاة ، وتسابيح جمال ، تسكر في نغمتهـا كل روح
نسانية عالية ، فهي كاملة من ناحية البنـاء الشعري ، وشرف
لمعـاني ، تُوحي لهؤلاء المتازين الذين يتغنّون بنشيد السلام ،
اخوة ابناء الارض ، ليجعلوها وطناً عالمياً واحداً ، أن يبنوا
هذا الوطن في جوّ ابي نواس الشعريّ .

ابو نواس يسخر من الحرب ، بأسلوبـه الماجن الظريف في
غير قصيدةٍ من قصـائده ، واضعـاً قبالة الدم ، والهـلاك ،

الحبّ والصباح :

وأيسر من مباكرة الاعادي مباكرة الحبيب لدى الشروق

وكأني بأبي نواس يشارك المعاصرين في حلّ المشاكل الاقتصادية ، وأزمات العُمّال ، ويشير على هؤلاء الاشتراكيين إشارة « **محبة** » تفوح منها رائحة العصر الحاضر ، بلونٍ من الوان الصفاء الشعري ، باسلوب النواسيّ الخاص :

احسن من موقفٍ على طللِ ومن عقارٍ جرت على ثملِ
نعتُ رغيفٍ كأنّه قمرٌ لم يك خبّازه على وجلِ
مدوّر الخَلْق ليّنٌ دمثٌ تأكله خالياً على مهلِ

ثم يَنْفَلِتُ من هذا الجوّ الى جوّه الخاصّ ليضع لنا نفسه موضع النموذج في سلوكه ، ونزوع قلبه :

إني امرؤٌ همتي والله يكلؤني
امران ما فيهما شربٌ ولا أكَلُ

حبُّ النديم وما في الناس من حسنٍ
كفّي اليه اذا راجعته خضِلُ

الشك والقلق

عند ابي نواس

قد يكون الشكّ والقلق متلازمين في النفس التي حصّلت نصيباً من المعرفة ، هذه المعرفة التي تتقرر بعد مراحل من الشكّ ، والشكّ هو ذلك الاضطراب الذهني امام صعوبة المسائل ، واستحالة القضايا ، وهو من ناحيةٍ اخرى ، تحرك الفكر بالأسئلة ، وعدم تلقّي جواباتها .

وقد يصل الشكُّ الى درجة الثبات ، فينقلب الى قلق ، متمثلٍ بانفعالٍ داخلي ، اليم ، مخيف ، يصعب التخلّص منه ، ومن مظاهره الكآبة ، وتوجّس الشرّ من القدر ، والألم الغامض الرهيب ، وتململات من الاحساس بالخطإ ، والسقوط ، وعدم الرغبة في شيء مخصوص ، مصحوباً بالكسل والاشمئزاز ، وقد يؤدي ذلك الى الانتحار .

وقد يكون مؤسَّساً على اضطرابات ذهنية ، وعصبية ، وجسدية عامة ، او بناء على مذهبٍ خاص يفلسفُ الحياة فيجدها فراغاً بين الوجود والعدم ، فيندفع صاحب هذه الحالات في

احدى هذه الطرق الثلاث ، الانتحار ، او الانغماس في اللذة كالنواسي والخيام ، او الزّهد كالمعرّي .

وقد بدأ **الشك والقلق** يساوران بعض النفوس في الجماعات الاسلامية ، منذ وفاة النبيّ، وكان مظهراً لها اضطراب «عمر» القلق الذي لم يصدّق وفاة الرسول ، وحروب « الردّة » من جهة اخرى ، ثم اتخذ القلقُ سبيلًا الى نفوس الشيعة بعد نكبة آل عليٍّ ، واشتراكية ابي ذرّ ، وانحراف الخوارج ، وتشدّد الأمويين ، ونشوء موجات اللهو ، والزهد ، ترفدها عناصر من الاسلام، والمسيحية ، واليهودية ، وغيرها ، فكثر التأويل، واختلفت الشروح ، واضطربت رواية الحديث .

وقد اصطبغ الشك بالروح العلميـة على ايدي المعتزلة ، الذين من اعلامهم ابو الهذيل العلاف ، وتلميـذه النظام صديق أبي نواس — اذا صح انهما اجتمعا — وقد قوي الشك في القرن الثاني وعلى عهد المأمون والواثق بعد أن نضجت دراسة المعطيات اليونانية ، ازاء الفرق الاسلامية المتعددة .

ابو نواس، شاعر هذه الفترة، واحد رجال الثقافة المرموقين في عصره ، هـذا العصر **الشاك الثائر** كما يرى طه حسين ، يتجلى ذلك في غزله من خمري وغلامي ونسائي ، وما اشعاره **الزاهدة** في آخر عهده ، إلا برهان قاطع على الهوّة المخيفة التي تفصل بين عهده اللاهي ، وبين عهده النادم .

أفيكون شعره الزاهد – من حيث القلق – استمراراً لشعره اللاهي ؟

وهل تلك النفسُ التي فكّرت في الموت والبعث ، والجسم والروح ، والزمان والحياة ، وعاشت اللذة باحساسٍ جماليّ منقطع ، متجدد، وكيف يرى نفسه تارة مجبراً ، وتارة متصرّفاً فتستفيق اعماقه صارخة كسليمان « باطل الأباطيل كل شيء باطل» فيتخيّل امامه الموت وما يتبعه من حساب فعقاب ، فيفزع الى الله ، بعد أن ضعفت اداته في طلب اللذة ، وينسى كل شيء الا التوسّل **علّ الله** أن يغفر له ؟

لكنّ هذا الرجوع الى الله لم يكن دفعةً واحدة ، فكثيراً ما كانت تعود نفسه الى سابق لهوها .

من هنا عدّه الكثيرون – زنديقاً – غير ملاحظين حالات النفس وما يعتريها ، وما يتقلب عليها من اجواء .

الزندقة .

والزندقةُ في هذا العصر تشمل **الشكّ والقلق** ، وإن كانت على مراحل متفاوتة بالنسبة الى عصور الفكر العربي .

ففي عصر بني أُمية ، اتُّهم بها « الوليد » ومؤدّبُه ، بسبب ما شاع عن الوليد من الاستهتار بالدين، والاكثار من الشراب، بينما كثر المتّهمون بها في العصر العباسيّ ، والسبب في ذلك أنّ

الزندقة في بعض معانيها، وهو الشك والالحاد، إنما تقترن عادةً بالبحث العلمي ، وهو في العصر العباسي أبين واظهر .

والسبب الثاني أنّ الفرس الذين لم تتحقق مطالبهم بانتقال الخلافة من بني امية الى بني العباس ، اخـذوا يعملون على نشر **المانويّة ، والزردشتيّة ، والمزدكيّة** ظاهراً وخفيةً .

المانوية :

مذهب « ماني » الحكيم الذي ظهر في زمان شابور وقتلـه بهرام ، اتخـذ **ديناً** بين المجوسية والنصرانيـة ، وكان يقول بنبوة **عيسى** ويُنكر **موسى** . زعم ان العالم مصنوع من أصلين قديمين **النور والظلمة** وهما ازليان ، ولا يزالان قوتين حساستين، سميعتين بصيرتين ، وهما في الصورة ، والنفس ، والعقل ، والتدبير ، متضادّان ، وفي الحيّز متحاذيان تحاذي الشخص والظل : (الملل للشهرستاني ص ٧٧ وما يليها) .

الزردشتية :

مذهب « زردشت » الفيلسوف الفـارسيّ الكبير ، اتخـذ « يزدان وهو النور ، واهرمن وهو الظلمـة » أساساً لدينـه ، وحصلت منهما التراكيب والصور بالامتزاج ، وهما يتغالبان الى ان يتفوّق النور على الظلمـة ، وله كتاب « الزّندفستا » المقدس عند الفرس ، وهو يقسم العالم الى جسماني ، وروحاني ،

أن ما في العالم « التقدير والفعل » وكل واحد معتمد على الثاني ، اما **التكاليف** فهي مقسومة الى اعتقاد ، وقول وعمل .
وللزردشتيّة عدةُ فروع ثنوية (الشهرستاني ص٧٧ ومايليها).

المزدكية :

مذهب « مزدك » الذي ظهر في أيام « قبـــاد » والد أنوشروان » قَتَلَهُ « انوشروان » بعد اطلاعه على خزيه ، والمزدكية تتفق في كثير من اغراضهـا مع المانويّة ، كما في مسألة **النور والظلمة**، وقد احل مزدك النساء، واباح الأموال، وجعل الناس شركة مثل اشتراكهم في الماء والهواء ، وقيل انه امر بقتل النفس لتخليصها من الظلمة والشر ، ومذهبه أن اصل الوجود **الماء والنار والارض** وان الله قاعد في العالم الاعلى على كرسيّه قعود « خسرو » في العالم الاسفل وبين يديه اربع قوى: قوة **التمييز** ، **والفهم** ، **والحفظ** ، **والسرور** (الشهرستاني) .

ملحوظة :

أ ذكر « خدابخش » المعلق على كتاب فون كريمر « الحضارة الاسلامية » ، وتأثرها بالمؤثرات الاجنبيّة ، ص ١٦٧ :

« ان المانويين كان مركزهم بابل قديماً (في المحيط الذي بنيت فيه بغداد بعد ذلك) ، وانهم كانوا يعظمون ايام **الاحد** ، **والاثنين** ، ويصلّون اربع صلوات في اليوم، الظهر ، والعصر،

والمغرب ، والعشاء ، ويصومون ثلاثين يوماً ، ويختلفون عن المزدكية الذين يبيحون النساء والاموال ، بميلهم الى تهذيب النفس بالحرمان ، وتحريم اكل اللحم ، وملامسة النساء .

ب كما ذكر ابن النديم في الفهرست ج ٦ ص ٣٦٥ طريقة صلاة المانويّة ، ووضوئهم .

ففي عهد المنصور ، نرى اسم الزنادقة مقروناً بالمُجّان ، ولم يُلاحَقوا بشدّةٍ الا في عهد المهدي ، الذي عيّن رجلًا وكل اليه امرهم سمّاه « صاحب الزنادقة » وهذه اول مرة يُعهد فيها الى رجل بمثل تلك المهمّة ، وقــد جدّ المهديُّ في طلبهم ، وامر « حمدويه » بضرب بشار حتى التلف، كما ولّى « عمر الكلواذي » على تعقّبهم، وقد اوصى المهدي ابنه الهادي باستئصالهم عن آخرهم ذاكراً من اعمالهم عبادتهم الاثنين **النور والظلمة** واباحتهم الاخوات والبنات ، وقد سار على طريقة المهدي في تتبعهم الرشيد والمأمون والمعتصم .

معنى الزندقة :

لم يكن معناها واحداً حسب العصور ، وحسب الطبقات الاجتماعية ، **فالعامة** تطلقها على **المستهتر الماجن** ، الممعن في الشراب ومحبة الغلمان ، كآدم حفيد عمر بن عبد العزيز ، لكن هــذا النوع بدأ خفيفاً ثم اشتدّ حتى وصل الى **الالحاد** كما عند ابي نواس ، لكن « ابن عبد ربه » ذكر ان علامة الزندقة

شرب الخمر ، والرشوة في الحكم ، ومهر البغيّ .

أمّا الخاصة ، فكانوا يفهمون الزندقة بمعنى آخر ، وذلك باعتناق الاسلام ظاهراً ، والتديّن بدين الفرس باطناً وخاصة مذهب « ماني » وغرضهم إفساد الدين الاسلامي ، « كعبد الكريم بن ابي العوجاء » الذي اعترف للمنصور قبل قتله بأنه وضع اربعة آلاف حديث مكذوب مصنوع ، وإفساد اللغة والأدب ، كما كان يفعل ذلك من حيث الادب حماد الراوية .

واحياناً تطلق كلمة الزندقة على أتباع ديانة الفُرس من غير ان ينتحلوا الاسلام ، وقد يطلقها « الجاحظ » على الملحدين الذين لا يقولون بدينٍ من الاديان ، على ان المعرّي يسمي الزنادقة « بالدهرية » الذين لا يقولون بنبوةٍ ولا كتاب .

وقد عدّ المعري ابا نواس من الزنادقة ، ثم قال واختُلِف فيه « وفي الطبري ان ابا نواس كان من كبار الثنوية » .

هذه مراحل مفهوم كلمة الزّندقة ، وكيف كانوا ينسبونها إلى الكثيرين بالحق او بالباطل ، وان صاحبنا النواسيّ كان من أشهر المتهمين بها ، وهذا شعره يفصح لنا عن الحقيقة :

« بكرت عليّ تلومني فأجبتها
إني لاعرف مذهب الأبرار

فدعي الملام فقد أطعتُ غوايتي
وصرفتُ معرفتي الى الإنكار

ورأيتُ إتياني اللذاذة والهوى
وتعجّلي من طيب هذي الدار

أحرى واحزم من تنظّر آجلٍ
علمي بـه رجمٌ من الاخبار

ما جاءنا أحـــدٌ يخبّر أنّه
في جنـةٍ من مات او في نار »

ذكر الموشح للمرزباني هذه الابيات (ص ٢٧٧) وصاحب الوساطة (ص ٥٧) وفيها تصريح بلفظ **الانكار** وعدم الايمان بالجنة والنار ، والايمان بهما ركن هـام من أركان الاسلام ، فزندقته لا شك فيها .

وقد صرّح باوضح من هذا بقوله :

« يا ناظراً في الدين ما الامرُ   لا قـدر صحّ ولا جـبرُ
ما صحّ عندي من جميع الذي   تذكر الا الموت والقـبرُ »

وكان قد انشد هذه الابيات في مجلس شراب فامتعض اصحابه منه ، واعلموه بانحرافهم عنـه ، فاعتذر اليهم بأن المجون افرط عليه ، وانشدهم قصيدته التي مطلعها « اية نار قدح القادح »

التي استحسنها الجاحظ . فرضوا عنه .

على أنّ « فون كريمر » عقد فصلًا خاصاً عن ابي نواس في كتابه «الشرق تحت حكم الخلفاء» ، قارن فيه بين ابي نواس وبين الشاعر الالماني اليهودي « هنريخ هيني » وذكر أنّ ابا نواس يفوقه براعةً في الشعر ، وفي السخرية ، والتحرر ، وانه كان يسخر من الاسلام على مسمع من البلاط .

على انني الى هنا لم ابيّن معنى هـذا **المجون** « الذي افرط عليه » كما روى الخطيب وابن منظور آنفاً ، وهي ، مع الاسف ، كلمة يختلف مدلولها اختلافاً بيّناً كاختلاف مدلول كلمة الزندقة.

●

المجون النواسي

كدتُ انصرفُ عن عرض ما قال في هذا الباب لفحشه ، إلا انني وجدتُ الخوض فيه ضرورياً لتكميل الحديث عن ابي نواس ، ولأنّ كلمة المجون لا تتناول الفحش وحده ، بل انها تصوّر لنا جانباً من حيويّة ابي نواس ، وانطلاقه دون حدٍّ ، او حجاب ، لهذا اعرض الى مدلول هذه الكلمة من جهة اللغة ، ومن جهة الادب .

المجون لغة :

ترجمت دائرة المعارف الاسلامية كلمة مجون بـ(Bouffonneric) ومعناها الاضحاك، وهو احد معاني المجون لا كله .

وقال « **المحيط** » **مجن مجوناً** إذا صلب وغَلُظَ . ومنه **الماجن** الذي لا يبالي قولاً وفعلاً، وطريق « **ممجن** » اي ممدود، **والناقة الماجن** هي التي ينزو عليها غير واحدٍ من الفحول ثم لا تحبل .

وفي « **البستان** » للشيخ عبد الله البستاني « تَمَاجَنا » بمعنى تمازَحا .

وفي « **اقرب الموارد** » للشرتوني مَجَنَ : بمعنى **هزل** ضدّ **جد** .

يستفاد مما قدمنا أنّ هذه المادة تفيد الخروج على **مألوف القول وفعله** وعدم التقيد **بالقانون** ، **او الاخلاق** ، **او الدين** .

المجون اصطلاحاً :

واما في الاصطلاح فهي تحتمل عدة معانٍ كالشك، والالحاد، والهزل ، والتظرّف ، والخلاعة ، او مزيجاً من هذه الاشياء كلها ، او بعضها .

ذكر الاغاني أن « مطيعاً » لم يكن من الفحول ، ولكنه كان **ظريفاً ماجناً** ، فهنا اقترنت كلمة المجون بالظرف ، ثم زاد فقال : حلو العشرة ، متّهماً في دينه **بالزندقة** ، فكأنها مزيج من هذه المعاني .

وذكر ابو الفرج ايضاً : أنّ ابا نواس قال : « كنت اظن « حماد عجرد » يُتّهم بالزندقة **لمجونه** في شعره حتى الخ ... » وكان اسماعيل القراطيسي مؤلفاً للشعراء عنده يجمعهم **فيشربون ويمجنون** ، ويدعو لهم **القيان والغلمان** .

فمجون حماد عجرد يحتمل الاستهتار ، ومجون الشعراء عند القراطيسي معناه الخلاعة ، وشرب الخمر ، والاضحاك .

وفي الموشّح حديثُ « الجمّاز » عن ابياتَ النواسي التي منها :

ما جاءنا احد يخبر أنـــه في جنة من مات او في نار

فلما بلغ هذا البيت ، قال له الجماز: يا هذا إنّ لك أعداء، وهم ينتظرون مثل هـذه **السّقطات** ، فاتّق الله في نفسك ودع الافراط في **المجون** . فقال ابو نواس : « لا والله لا اكتُمُها خوفاً ، وإن قُضيَ شيء كان . » الخ ...

فهنا قُرنت كلمة المجون بالكفر والالحاد .

وقد مر معنا انشاده جماعةً من عشرائه : يا ناظراً في الدين ما الأمرُ ... الخ .

فلما امتعضوا ، اعتـذر بقوله « ولكن **المجون** يفرط عليّ » فهي هنا بين الشك ، والاستهتار ، والخلاعة .

ثم عاد فقال بعد « قصيدته الزاهدة » « هذا هو **عمل الشيطان** القى بهذا الكلام ليفسد يومكم » .

وأمّا المجون بمعنى الدعارة ، فإن ابياتـــه في ابن **الصيرفي** واضحة الدلالة أمسكُ عن روايتها لفحشها ، وللخطيب البغدادي

قوله « إن الجماز كان **ماجناً خبيث** اللسان . » فمعناها هنا بذاءة القول ، والاستهتار .

وقال الجاحظ عن الحسين بن الضحّاك « إنه كان ماجناً مطبوعاً ، حسن التصرف في الشعر. » ومثل ذلك ذكر ياقوت في معجمه .

اما « ابن العماد » فقد ذكر عند حديثه عن ابي العتاهية « أنه كان اول امره مخنثاً ، سمي بأبي العتاهية لأنه كان يحبّ الشهوة **والمجون** لعَتَهْوِه » فمعناها هنا التخنث والشذوذ الجنسي.

وفي ذيل الأمالي أنّ النواسي لما قال :

جريت مع الصبا طلق الجموح وهان عليّ مأثور القبيح

قال ابو العتاهية : « لقد جمع في هذا البيت **خلاعةً ومجوناً .**» فالشطر الأول يفيد عدم المبالاة بممارسة امور الشباب الخلاعية، واما الشطر الثاني فيتناول كل ما خرج على حدود العرف ، والاخلاق ، والدين ، والقانون ، فهو مزيج متعدد التركيب .

من هنا يتلخص معنا أنّ المجون النواسيّ يتلاقى مع الزندقة في جانب ويفترق عنها في آخر ، فالزندقة اقرب الى الكفر والشك ، والمجون اقرب الى الخلاعة ، والتظرف ، والهزل .

*

بعد هذا يتبيّنُ لنا أنّ الرجل كانت له حالاتٌ تضطرب فيها نفسه القلقة بين الشك، والانكار، والايمان، وبين الانشراح والقلق ، والاشمئزاز ، والثورة ، وليس زهده إلا وجهاً آخر لذلك القلق ، انغمس فيه استجابةً لنداء داخلي مرعب ، وقد ضعفت في نفسه الصارفات الى اللهو .

ويمثل شعره الزاهد هـذا الجوّ النفساني الانساني ويعرض لنا إيمانه وندمه ، بصورة حارةٍ صادقةٍ تبعث على الشفقة والرثاء له .

زهد النواسي :

كلٌّ من قرأ قصيدة أبي نواس الرائية الماجنة التي يسرد فيها ذهابه الى فقيـهٍ عالمٍ يسأله عن **النبيذ** هـل هو حلال ؟ فيجيبه الفقيه (حبر الاحبار) الحلالُ هو العقـار ، التي ترمي العيون والافواه بشرارها لقوّتها الكحوليّة ، على ان تُشرب في جوٍّ من صوتِ المزمار ، ينفخ فيه عيّارٌ ماهر ، ينادمه ، ولا بأس **بالصلاة** مـا دام حليف الخمرة ، امـا **الصيام** فليبتعد عنه شادّاً « عرى الافطار بالافطار » ، وامـا **الحج** فهو فضولٌ يجب ان ينصرف عنه ولو كانت « مكةُ عنْد باب الدار » ، وامـا **الجهاد** فلـيُهمَلْ ، وليسالم الكفّار ، على ان ينتقم للمسلمين بمواصلة ابنائهم المرد ، واخيراً امره هذا الفقيه الناسك أن يزيّن هـذه الخصال بالقمار .

كل من قرأها يعجب العجب كله كيف يندم قائلها ، ويقول شعراً في الزهد ، يحمل ابا العتاهية المختص بهذا النوع من الشعر ان يتوسل اليه كيلا يقول في هذا الباب لئلا يفضحه ، لأن أبا العتاهية مستقيم من الجهة الدينية يأمل دخول الجنة ، ولذلك جاء زهده في الشعر محدود الأثر ، بينما زهد ابي نواس في شعره، زهد المنخلع فؤاده من هول العقاب، جزاء ما أسرف في ماضيه ، يرفده تفوق قريحةٍ عبقريةِ الشاعرية . احب ابو نواس الحياة حباً اندفاعياً لا يبالي فيه أين وقع ، وهذا جانب بشريٌ قوي الدلالة :

« ورأيت اتياني اللذاذة والهوى   وتعجُّلي من طيب هذي الدار »
احرى واحزم ...

ثم رأى أن كل ما كان فيه ذهب ادراج الرياح :

دبّ فيّ السقام سفلًا وعلوا   واراني اموت عضواً ، فعضوا

فارتاع خوفاً ، والقلب البشريُّ — عند يأسه وخوفه — لا يجد غير الله ملجأ ، بل ربما كان هذا الشعور ، عزاء الانسان الاول الوحيد ، في كل ما كان يعترضه من مخاوف تجاه الطبيعة ومصائبها .

ثم انّ مثل ابي نواس في نضج تجاربه ، وثقافته ، لا ينغمس في لهوه عبثاً ، بل وراء كل قصيدة خمرية او غزلية ، وخلف

كل حركةٍ ماجنة او شاكة ، وجهٌ من وجوه روحه الحائرة القلقة ، التي تتمزق في أعماقها ، إذ لا يرى في هذا الوجود ظاهر تناسب ، ولا محبة إخاء ، فيهوي مرتمياً في كأسه ، ليذهل عن مآسي الكون ، وليس صواباً أنّ الرجل كانت تتحكم به الحالات الطارئة بل هو كان مزدرياً ساخراً يشبه ابا العلاء رغم ابتسامه هذا في الظاهر ، وعبوس ابي العلاء ، ولكن اشعاره الزاهد على صدقها ، وروعتها ، لا تظهر لنا شخصيته كشعره اللاهي لأنه عاش شعره اللاهي بكيان كامل ، بينما شعره الزاهد قال وهو موزع مرعوب .

ذكر ابن قتيبة أن الرشيد وربما المأمون ، كان يجعل قول ابي نواس :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدوٍ في ثياب صديق

قمة الاعجاز ، وان الدنيا لو تمكنت من النطق لما وصفت نفسها بغير ذلك ، وقد يجعل الناس سواء في عدم محاسبة النفس ، وكأني به يعتذر عمّا فرط في جنب الله ، قائلا :

لو لم تكن لله متهماً   لم تمسِ محتاجاً الى احد

فالحياة الاجتماعية قائمة كلها على ذلك الاحتياج :

تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته   بعفوك ربي ، كان عفوك اعظما

لكنّه قد لا يطمئن إلى خلاصه من العقاب فيصيح كالمجنون :

لو أنّ دون النفس واقيةً   لفديتها بالمــال والولد

فهل بعد هذه الاستغاثة من دلالةٍ اقوى على حب الحياة ، والتعلق بها ؟ ان مثل زهد ابي نواس ، لا يعدله شيء في عمقه وقوته وصدقه ، لأنه نتاج اليأس ، والشعور بالفراغ ، إنه نداء مكبوتٌ من وراء هذا النداء الصارخ ، يكاد يُفجر كيان صاحبه خوفاً من الموت ، والمصير :

« وانت أيها المزمع ان تتوب غداً
اومـا تخاف الموت قبل غـد ؟ »

الحياة والموت ، الوجود والعدم تقسّما فكره وشعوره ، لهوه وندمه ، فبمقدار ما انغمس في اللهو ، ليستر يأسه ، وينسى قلقه ، ارتعـد هلعاً من القـــدر ، فاذا قال منكراً « ما جاءنا احـدٌ يخبر انه في جنةٍ أقام او في نار » فهو هنا يبكي ذاته لا بدمعه وحده ، بل بقطعٍ من روحه ، ودمه ، ولحمه وعظمه ، مؤمناً بحقيقة الاسلام ، الذي اخبر أنّ اعضاء المرء ستشهد عليه في الآخرة :

ما حجتي يوم الحساب اذا   شهدت عليّ بما جنيت يدي؟

المصير ، المصير ، دائماً يتخايل في كأسه ، ومجونه ، فيطرد الاشباح بتخدير حواسه كلها ، لكنه يفيق ليقول :

انّ مع اليوم فاعلمنّ غداً   فانظر بما ينقضي مجيء غده
ما ارتدّ طرف امرىء بلذته   الا وشيء يموت من جسده

عاش هذه الصورة الحيّة الرائعة بعقله وقلبه ، ودفع ثمنها غالياً من دمه ولحمه ، وهكذا فإن نشاط الجسد يطغى على العقل ، فتسير الغريزة عمياء لتشبع نهمها ، وبعد أن تطمئن يأخذ العقل في تحليل العمل ، شرح اللذة ، فيقول ما قال صاحبنا قبلاً.

وهل اقوى وابلغ من صيحته في وجه اللذائذ ، في وجه نعيم الدنيا ، في وجه ماضيه القائل « ان لذة الدنيا العاجلة احرى واحزم من انتظار الآجلة » :

يا نعيم الدنيا خلطت علينا   أنت مستقبلٌ وانت مولّ
تبغي من الدنيا زيادتها   وزيادة الدنيا هي النقصُ

إن من قال في شبابه قولاً يدفع الى اللذة ، ومن قال في شيخوخته قولاً ينقم فيه على اللذة ، لم يكن مناقضاً نفسه كما يظهر ، ولم يكن عابثاً كما يخيل للبعض ، بل كان كالمستقرىء العالم ، يَفحص ، ويجرب بنفسه ثم يحكم. وزهد النواسيّ قضّيةٌ منطقية لها مقدمتها ونتيجتها .

وكما اشرنا سابقاً الى قوة الاستحضار عنده ، وهي من عمل المخيّلة القوية ، فانه هنا يتصور نهايته بقوله :

وأرتك قبرك في القبور   وانت حيٌّ لم تمت

فاية نهايةٍ أقسى من هذه النهاية ؟!

واذا ظهر لنا من شعره الخمري الغزلي ، أنه من الميالين الى المسيحيّة، فانه في شعره الزاهد ، مسلمٌ بإيمانه ، وتعبيراته ، واني لأتساءل هل يمكن أن نتصوّر دعاءً أنقى وأصفى من هذا الدعاء ، الذي يبتهل به الى الله :

« يا ربّ إن عظُمت ذنوبي كثرةً
فلقد علمتُ بأنّ عفوك اعظم

ان كان لا يرجوك الا محسنٌ
فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ ؟

ادعوكَ ربّ كما امرت تضرّعاً
فاذا رددت يدي فمن ذا يرحمُ ؟

ما لي اليك وسيلةٌ الا الرجا
وجميلُ عفوكِ ، ثم أنيّ مسلمُ »

ابو نواس يختلفُ عن الخيام اختلافاً بيناً بهذا الخصوص، فهو ينهمر بكامل وجوده، راكعاً يستجير بعفو الله، من عذاب الله، بينما الخيام يخاطب الله مخاطبة الند للند ، مخاطبة الشيطان لله بقوله :

إلهي قل لي من خلا من خطيئةٍ
وكيف ترى عاش البريء من الذنب

اذا كنت تجزي الذنب مني بمثله
فما الفرق ما بيني وبينك يا ربّي

تربى ابو نواس تربية اسلامية واتقن علوم الدين ، ولا شك في ان ضميره وعى هذه الحياة الدينية لما خمدت دواعي الغواية ، وقد شاء القدر ان يكون ابو نواس بغزله وخمرياته مرآة بغداد البراقة في افراحها وملاهيها وهي عاصمة الدنيا آنذاك ، كما مثل بشعره الزاهد مذهب المرجئة الذين يتسامحون في الحكم على المذنب ويبنون حياتهم على الانشراح والتعزية كما اشرنا قبلًا ، كما يمثل احياناً الجبرية في انسياقه مع الهوى كريشةٍ في الريح ، ويجد الباحث في هذا الشعر سجل الزنادقة ، والالحاد ، والمعتزلة والشيعة والمزدكية والشعوبية والعربية والميل الى النصرانية ، والاستهانة بكل جديّ في الحياة كالسياسة والاجتماع والاخلاق، كما يصور اصدق تصوير حياة النسك والندامة ، مما لا نجده عند الحسن البصري او عمرو بن عبيد او سعيد بن المسيب ، ومع هذا كله فانا لا نجد له في شعره الزاهد توسلًا بالنبي كما فعل بعد ذلك اصحاب المدائح النبوية ،بل يتوجه بروحه المستقلة الى الله ، وفي هذا الحرية التامة وانغماس في النور المؤمل البعيد .

●

الغزل قبل النواسي

في الجاهلية :

الشعر الجاهلي مظهر من مظاهر الحب ، والفروسية ، والبداوة . ويكاد يكون الغزل مفتاح كل قصيدةٍ جاهلية ، الا انه غزل يجنح الى الحزن ، المتولّد من حياة الصحراء وما فيها من انتقال ، وشقاء ، وفراغ ، ومما تقلّب عليها من ظروف ، كحال المرتحلين بعد سيل العرم ، والمصابين بحوادث الطبيعة من « عاد وثمود » والذين كانت لهم حضارةٌ عمرانية قبل الاسلام ببعيد « الم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات **العماد** ، التي **لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود ... »**

كانت المرأة عزاء العربي في عيشه الصحراوي المحروم ، فغنّى لقاءها ، وبعدها في مطالع قصائده ، وبكى في غنائه ، حتى ان سيد شعراء الغزل الجاهلي **الامير الكندي** وقف وبكى واستبكى ، لكنه رغم هذا البكاء كان اول حلقةٍ في مدرسة « عمر المخزومي » اذ مهّد له سبيل القصة الغرامية الواقعية ، المعروضة في معلقته ، التي تلتفت اليها قصيدة عمر « أمن آل

نعم » مع فارق **العصر ، والحضارة ، والشخصية .**

اما عند طوفة ، فإن غزله يمور بعاطفةٍ متعددة الجوانب ، قلقة الاتجاه ، مقترنة بذلك النداء الداخلي الذي يشيع اليأس ، وينذر بالموت ، ويدفع الى الخمرة واللذة دفعاً ، مقابل دفعه الى الحَرب ، ففكرة الحب عنده ، ملازمة للقلق من المصير ، والحياة في نظره باب مفتوح على النهاية .

ولا أظن ان شاعراً جاهلياً مهّد بروحه لابي نواس كطرفة ، تلك الروح الهاربة من أصواتها الباطنة التي تزيد ضجة بسبب اليتم ، والفقر ، والظلم ، والطموح ، والكبرياء :

الا ايهاذا الزاجري احضر الوغى
وان اشهد اللذات هل انت مخلدي ؟

فان كنت لا تسطيع دفع منيتي
فدعني ابادرها بما ملكت يدي

وقال ابو نواس :

اعاذل ما فرّطت في جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبيع
اعاذل خلّيني اروِّ شبيبتي فان بان لي رشدٌ فسوف اريع

وقال : فدعي الملام فقد اطعت غوايتي
وصرفت معرفتي الى الانكار

ورأيت اتياني اللذاذة ...
أحرى واحزم ...

أبان طرفةُ عن لومهم اياه لاندفاعه في سبيل **الحرب، واللذة، ويأسه** من حياةٍ أخرى بعد الموت ، فهو لذلك يبادر اللذة والحرب بكل وسائله .

وابان النواسي عن ذلك اللوم لطلبه اللذة ، وانفاقه المال في سبيلها ، ولكنه يُظهر لنا في البيت الاول **شكه** «فان بان لي رشد » واما في البيت الثاني فيظهر **انكاره** عن **معرفة** .

طرفة في سؤاله، ويأسه القلق، واندفاعه الطائش، يقف بفخر إزاء النواسي الذي لم يعش الحرب ، ولكنه عاش اللذة ، وزاد على طرفة بالمعرفة والشكّ والجحود، وهما لا يحترقان ويتململان عشقاً كعنترة ، **واما عنترة** فالغزل عنده قويّ الغليان ، محتدم العاطفة ، تلك العاطفة التي عاشت لاهبة في جـوٍّ من الالم ، والشوق ، والكبرياء ، والبطولة ، فهو ابداً رغم بساطة عاطفته بالنسبة الى العاطفة عند طرفة، مصطرع بين رغبته وإبائه ، وعلى كل فحياته العاشقة اجدر افق تعيش فيه الملحمة، وهكذا كان . « معلقته مرجع هذه اللمحة » .

اما عدي بن زيد، الذي يعد الحلقة الاولى في مدرسة الوليد، وابن مناذر ، والنواسيّ، من حيث غزله المتحضّر الناعم، ومن

حيث مزجه الغزل بالخمرة ، حاكياً قصة رغبته كالنواسيّ مع بساطته ، وقلة ما له من الشعر ، ولكنه بعيدٌ عن جو الوليد المضطرب اليائس ، المستهتر ، وعن جو النواسي الذي اتخذ الحب والخمر ديناً ، لكنه يتفق مع النواسيّ بختمه حياته بالزّهد :

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق ؟
ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلبُ عندكم موهوقُ
زانها حسنها وفرعٌ عميمٌ وأثيث صلت الجبين انيقُ
لست ادري اذ أكثروا العذل فيها اعدوٌ يلومني ام صديقُ
ودعوا للصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينهـا ابريقُ

الخ ...

واما **النابغة والمنخل** فشهوريّان، على ان المنخّل يُعدُّ بغزله ، على قلته ، برزخاً بين غزل ما قبل الاسلام وما بعده ، شاهدنا على ذلك قصيدته الرائية : ولقد دخلت على الفتاة الخدر ... فالمنخل يزيد في العذوبة على امرىء القيس ، ويقلّ لبساطته عن « عمر » .

في عصر بني اميّة :

هذا العصر بالنسبة الى عصور الحضارة العربية ، عصر **بناء**، **وحيوية**، **واندفاع**، **فالسّياسة** تضطرب بين الشيعة، والخوارج، والأمويين، ومن خلفهم كثيرون من اصحاب المآرب، كالفرس،

وابناء الأسر العربية الكبرى ، التي تتطلع الى النفوذ ، **والدين** لم يعُد طريقاً للتسليم المطلق كما في عهد النبي ، بل بدأت تلتمع في الأفق تأويلات ، وتفسيرات، ومذاهب ، إزاء نشر المذاهب الفارسية الكبرى ، **والمجتمع** العربي احسّ بدمٍ جديد يزيد في سرعة تبدله وتطوره ، **والادب** وليد هذه الاشياء ، بطريقٍ مباشر او غير مباشر ، هنا ، يكون **شعر الحب** عنواناً على الشعر ، كما يكون الشعر عنواناً على مقدار الحضارة ، لذلك فعصر بني امية ، عصر الحيوية الناشئة ، او سن البلوغ بالنسبة الى الكائن الفرد .

عمر بن ابي ربيعة ، نموذج هذا العصر ، بما فيه من جدةٍ ، وشبابٍ ، والوان، اتخذ طريقة امرىء القيس في الحكاية عن المرأة ، حتى أصبح غزله فنّاً قائماً بذاته ، عاش حياته كلها عليه ، لم يتعدّه الى غيره من الشعر ، عرض ، بأسلوبه السّهل ، الجميل ، العذب ، ترف بيئته ، وذائقتها الاجتماعية ، وصَبْوة المرأة المسلمة التي تتململ لتعبر عن نفسها بشعر عمر ، عن حياتها بالحب ، بالتحرر ، فكان رائد الشباب الحجازي — الذي صرفته الظروف السياسيّة عن طريقها — الى العبّ من كوثر الجمال ، والتنعّم بأطايب الحياة التي عمتهم بخيراتها ، يساعد كل هذا جوّ من الغناء ، ارهف الحواس وهذّب الغرائز ، أشاعه الموالي وتلاميذهم ، فخفّف كل ذلك من قسوة التكاليف الدينية .

إذن فعمر زعيم الغزل في هذا العصر ، بل في كل العصور

على رأي طه حسين ، تغنّى به متكافئاً مع **نرجسيّته** ، **وحبه الصادق للمرأة**، حبّـاً حسّيّاً يشبه حب ابي نواس في تنقله ، ولكنه يقل عنـه في تنوعه ، فقد احب ابو نواس بقلبه **جنان** ، واحب بعقله **عنان**، واحب بحسّه **الغلمان**، وكلاهما موكل بالجمال يتبعه ، ذلك بين الحرائر الارستقراطيات، والآخر بين الجواري. كان عمر بغزله يمثل الترف الحجـازي واللهو والشباب ، كما كان جميل العذري يمثل الحب العفيف المتأثر الديّن .

فجميلُ بن مَعْمَر العذري ، يمثّـل تطلّع فريقٍ من الحجازيين الذين اخفقوا سياسيّـاً ، فتطلعوا الى العزاء بالله ، بالمثل الأعلى، وقد عرف هذا الحب العفيف **بالعذريّ** نسبةً الى قبيلة جميل مع أنّ اكثر العشاق الشعراء لم يكونوا من بني « عذرة » .

غزل جميل موقوف على امرأةٍ واحدة، بثينة، ليس متنقّلًا كغزل عمر ، وكلا الشاعرين وقف شعره على الغزل . عمر كان **عمليّاً** في غزله ، بينما جميل اكتفى **بأن يحب** ، **وأن يتألم** في ذلك الحبّ ، فعشقه غير طبيعي ، ارتدّ الى ذاته ينهلُ منها ، ويفنى في سبيل ذلك ، في جوٍّ من مزاجه الخاص ، ومن تعاليم الاسلام ، وتقاليد البداوة ، ثم تطور هـذا الحبّ حتى أصبح تمهيداً للصوفية ، التي قفزت من **المرأة** ، الى **الله** ، ودخلت فيها بعد ذلك عناصر **نصرانية** ، **وهندية** ، **وافلاطونية** ، وتفشّت العذريّة بين الفقهاء بعد ذلك، امثال ابن حزم الأندلسي صاحب

طوق الحمامة ، وابن داود الظاهري صاحب **الزهرة** .

قالت دائرة المعارف الاسلاميـة تحت مادة « عذري » :
« الحب العـذري في تاريخ الفكر الاسلامي ، موضوع ادبي فلسفي مقارب للحب الافلاطوني اليوناني، الذي منه اشتق الحب المسيحي في العصر الوسيط ، وصاحبه يموت دون ان يمد يده الى المحبوب ، والدافع اليـه إحساس رقيق خاص ، بالتقوى والطهارة ، وفي الحديث من عشق فعفّ فمات ، مات شهيداً . وقد وصل الى درجته العليا في كتاب الزهرة ، وكتاب طوق الحمامة ، وكتاب ترجمان الأشواق لابن عربي » .

على هذا يقول احد علمـاء النفس « إن الدين وما يبث في نفوس المستمسكين به من الشعور بالخطيئة ، يعمل على إعلاء الغريزة الجنسية » .

على أنّ جميلًا كانت تعترضـه اويقات كان فيها ماديّاً شهويّاً كعمر :

ألم تعلمي يا عذبة الريق انني
اظل اذا لم الق وجهك صاديا

واني لأرضى من بثينـة بالذي
لو ابصره الواشي لقرّت بلابله

ففي البيت الأول حسٌّ شهويٌّ ظاهر ، وفي الثاني صوفية، وتأمل ، واني لا ارى في هـذا **التناقض** كبير عيبٍ – جرياً على مذهب قُدامة – لولا أنّ العذرية مذهب في الحبّ ، قبل ان تكون مدرسةً في الغزل ، هذا الغزل الذي جعل السّباعي زعامتـــه لجميل ، كما جعل طه حسين زعامته لعمر . وأنّ الحبّ لا يجوز التلاعب بحقائقه الروحيّة .

على العموم شعر هؤلاء المذريين ساذج ، ذو نغمة **واحدة** ، كوجه الرمال القاحلة المترامـيـة ، كما أنّ شعر « الواقعيين » متلوّن متعدد ، كالشّرك والوثنيّة، في الأول طفولة الاحساس بالجمال كالصغير الذي يبكي لفقد حلواه ، كأنّ نداءهم الحزين ، صدى استغاثة تأتي من وراء الكثبان البعيدة ، في الليل القاتم ، ولكنّ فيها جلالاً ونبلًا :

لقد خفت أن القى المنية بغتةً   وفي النفس حاجات اليك كما هيا

واذا قابلنا هذه المدرسة ، بما عند النواسي الاباحي ، فانما نقابل نغمة **الناي** المنفرد ، بمعزوفةٍ من مئة قطعة موسيقيـة ، كمقابلة الماء بالخمر ، وظل الكثيب بظل شجرة الياسمين ، يزاد على ذلك الفرق بين اسلوب النظم بين سذاجة البداوة وتعبيراتها، وفن الحضارة وتنوع الوانها .

الوليد بن يزيد :

« قد شربنا وحنّت الزماره   فاسقني « يا بُديحُ » بالقرقاره

من شرابٍ كأنه دم خشفٍ عتقته « هشيمةُ » الخماره
إسقني إسقني فإن ذنوبي قد احاطت فما لها كفاره »

يتحدث « الوليـــد بن يزيد » عن **الشراب** ، **والسّماع** ، والانغماس في الخطايا ، واليأس من الغفران، فهل هذا شيء غير « **مبادرة طرفة** » و « إرواء الشبيبـة » عند ابي نواس ؟ على أنّ طرفة يائسٌ من كل شيء ، بينما عديُّ بن زيد لا يفكر في غير غزامه، وكأسه، امّا ما بعدهما ، فلا يعكـّر جوه بالتفكير فيـه ، لكن ابا نواس ليس باليائس ، بل « إن بان له رشدٌ فسوف يُريع » .

« الوليد » نسخةٌ قريبـةٌ من ابي نواس في الشك والقلق والاستهتار ، ولكنّ الشعر عنده ليس فنّـاً يعيش له ، بل هو مجال للتنفيس عن النفس ، يطلقه كيفما جرى ، وهو مع ذلك قويُّ الوقع ، يحمل من اعماق صاحبه فلذات روحه .

يتقارب الوليد وابو نواس حتى في قصر الأوزان وعذوبتها، واما الصدق في كل ما يعنيان ، واما ذلك السؤال في ذهنيهما الذي يلحُّ في طلب الجواب ، فذلك ما عاشا فيـه ، وتعذّبا لأجله ، كذلك فإن شعر الرجلين اضطرب وضاع بعضه ، على أنّ الظروف السياسية كانت أقسى على الوليد—اميراً وخليفةً— بسبب موقف عمه هشام منـه ، وبسبب موقف العباسيين من الأمويين ؛ ومن نقاط الشّبه والتلاقي عند الشاعرين أنّ الأغاني

ذكر قصيدة « اصدع نجيّ الهموم بالطرب » للوليد، ثم قال : وللوليد في ذكر الخمر وصفتها اشعار كثيرة قد اخذها الشعراء وادخلوها في اشعارهم ، وخاصةً ابا نواس .

على أنّ جامع الديوان ذكرها لأبي نواس، وعند التمحيص وجدتُ أنّ القسم الأول منها أَرْجحُ أن يكون لابي نواس ، حتى البيت التاسع القائل :

« ياحسنها من بنان ذي خَنَثٍ   تدعوك أجفانه الى الريب »

وهو طابع شعر ابي نواس ، وكذلك الشطر الثاني من البيت العاشر القائل :

« لا بصياح الحروب والعطب »

وكذلك البيت الثالث عشر القائل :

« وردف ظبي اذا امتطيت به   أعطاك بين التقريب والخبب »

وما بقي فهو للوليد .

ثم رواها الدكتور طه حسين في حديث الاربعاء وفيها هذه الزيادة للوليد :

أشهى الى الشّرب يوم جلوتها   من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورقّ جوهرها   حتى تبدّت في منظرٍ عجب

الى ان يقول :

في فتيةٍ من بني أُميّة اهل المجد والمـأثرات والحسب
ما في الورى مثلهم ولا بهمُ مثلي ولا منتمٍ لمثـل ابي

بشار : يرجع إبداع بشارٍ في غزله إلى موهبته ، وثقافته ، التي نلاحظها من جميع جهاتها، اتخذ طريقة المخزومي في الحكاية، احياناً ، فزاد عليه في التنبّه الى مثيرات الغريزة ، وقل عنه في العذوبة ، ولكنـه استطاع أن ينقل حديث المرأة نقلًا حاذقاً ، فيه كثير من الفحش والعهر، يكفي ان نقرأ قصيدته «قد لامني في خليلتي عمر » والأخرى « عجبت فطمة من نعتي لها » لندرك كيف كانت نفسه تفحّ شهوةً ، وحسّاً داعراً ، ونساؤه جوارٍ، ما فيهنّ حرّةٌ كنساء ابي نواس ، ثم هو خبير بنفس المرأة ، لا ييأس من وصلها مهما صدّت، لا يرى فيها غير اداةٍ للمتعة :

لا يؤيسنّك من مخدّرةٍ قول تغلّظُه وإن جرحا
عسر النساء الى مياسرةٍ والصعبُ يسهلُ بعدما جمحا

وقد بلغ بشار في فنه مبلغاً عظيماً ، فجاء شعره غايـة في إحكام البناء ، وإشراقه ، ودقة معانيه، حتى انه حاكى اسلوب العذريين فبذّهم بفنه وانسجام معانيه، وإن كان أبعد ما يكون عنهم من ناحية الصدق في الحب ، وطهارة النفس، فهو في حياته بين الناس ، كان من اثقلهم ظلًا ، واوجعهم لساناً .

ومن معانيه التي تذكرنا بدقة ابي نواس وصوره قوله :

تُلقى بتسبيحةٍ من حسن منظرها
وتستفزّ حشا الرّائي بإرعاد

كأنما صوّرت من ماء لؤلؤةٍ
فكلُّ جارحةٍ منها بمرصاد

« تُلقى بتسبيحةٍ » من اجمل التعابير الشعرية، اذ يشير الى الدهشة امام الجمال ، فيهرب الى المثل الأعلى ، الجمال المطلق، الذي يُسبّح له وهو الله ، **والارعاد** خفقان الضلوع بقوة ، « **وماء لؤلؤة** » صافية ، متميّزة بالنفاسة والحسن، ففي اللؤلؤة كل شيء حسن ، لا تفريق بين جانب وآخر ، لكنّ تشبيه محبوبة بشار باللؤلؤة، لا يخلو من عيب ، اذ أنّ اللؤلؤة جميلة، ولكنها ليست متنوعة الجمال ، جمالها بسيط له وجه واحد ، وعذره أنّه حَصَر وجه الشبه من ناحية **الصفاء** :

« انا والله اشتهي سحر عينيك واخشى مصارع العشّاقِ »

« اشتهي » قوية الدلالة على الشبق ، وفي « اخشى مصارع العشاق » تشبه بالعذريين وفيها من جانب آخر تعويضٌ عن عماه ، وهو كثيراً ما يردد مثل هذا المعنى :

« فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب »
« والأذن كالعين توفي القلب ما كانا »

قصيدته في « فطمة » : عجبت فطمةُ من وصفه جمالها وهو مكفوف البصر ، ولم تدر فطمةُ ان بشاراً يصفها بغريزتـه ، وللغريزة عيونها وإدراكها كما يقول علماء النفس ، ومن تكون « فطمةُ » هذه ؟ انها بنت ثلاث عشرة سنةً ، فهي فتاةٌ غِرة، لها وجه القمر ، وقد الغصن ، وردف الكثيب ، تمتاز على اترابها ، امتياز الدرة على مال التاجر ، ولما مد يده الفاسقة اليها ، بكت ، ثم شكت الى سيدتها كيف اقتسرها ، وكيف كانت سعيـدة بأخذها عنوةً ، فهي تطلب من سيدتها أن تتركها معه لتستزيد من اوطارها ، فعمدت سيدتها الى ضربها مهتاجة غضبى ، فأخذت تولول وتبكي .

هنا يتبين لنا سوء نفس بشار ، وقبح شعوره ، اذ يستحسنُ دمع عينيها وهي تبكي من الضرب ، فيغسل الدمع كحل تينك العينين ، واين هو من رؤية ذلك الحسن!!؟ ثم يستنجد بعد ذلك بالنوّام، ليسألوه عن طعم السهر ، ليخبرهم عن نفاقه في الحب اذ لا داعي لازعاج النائمين فهو معروفٌ بتقليده المحبين في الروح، وان فاقهم جميعاً بجمال الاسلوب .

هذا هو بشار، الذي يقل عن ابي نواس لطف طبع، وحلاوة روح ، وتنوع غزل ، وامتداد آفاق ، ويفوقه قوة بناء محكم .

معاصروه الغزلون :

مرّ بنا أنّ للنواسيّ عشراء (عصابة سوء) كانوا على شاكلته

مجوناً وانطلاقاً ، لكنهم كانوا يعيشون متحابين كأنهم شخص واحد ، يفسقون معاً ، وقلّما ينفصلون ، وينفقون ما تيسّر بالسويّة ، وكان ابو نواس – عظيمهم – بارّاً بهم شديد التعلق بمشرتهم ، يذكرهم بالاجلال والترفّع عن النظير :

يريد ان يتسوّى «بالعصبة» المجّانِ
بعجردٍ وعبّادِ والوالبي الهجانِ
وقاسم ومطيع ريحانة الندمانِ

الحسين الخليع : الحسين بن الضحاك ، الاشقر او الخليع ، الباهلي البصريّ ، من اقرب الشعراء الى قلب النواسيّ والى كل قلب ، قد لا يدانيه شخصٌ آخر في عذوبة روحه ، وروعة فنّه الشعري ، قال عنه الجاحظ :

« إنه من شعراء الدولة العباسية ، وأحد ندماء الخلفاء من بني هاشم ، وكان ماجناً خليعاً مطبوعاً ، حسن التصرف في الشعر ، وكان ابو نواس يُغير على معانيه في الخمر . »

قال ابن رشيق إن الحسين انشد أبا نواس قوله :

كأنما نصب كأسه قمرٌ يكرع في بعض انجم الفلكِ

فنفر ابو نواس نفرةً منكرة ، وقال : « هذا معنى مليح وانا احقُّ به ، وسترى لمن يُروى » ثم انشدهُ بعد أيام :

اذا عبّ فيها شارب القوم خلته
يقبّل في داجٍ من الليل كوكبا

قال له الحسين : «هذه مصالتةٌ يا ابا علي» فأجابه ابو نواس : « اتظن انه يروى لك معنى مليح وانا في قيد الحياة ؟ »

وهكذا فقد سار بيت ابي نواس ، ونُسي بيت الخليع ، مع ان فيه ذكر **القمر** وله فضل السبق ، ولكن بيت ابي نواس أملأ للفم والسمع ، وأعظم هيبةً في النفس والصدر .

غير أنّ ابن رشيق اخطأ الحسّ تماماً في تقدير البيتين ، فالحسين في بيته يفضل ابا نواس حتماً ، وليس في بيت النواسي غير « القعقعة » ومعناه بسيطٌ عاديٌّ ، بينما التعبير بـ **يكرع** يعدل بيت ابي نواس — والحقُّ يُقال —

صِلْ بخدي خدّيْك تلقَ عجيباً   من معانٍ يحار فيها الضميرُ
فبخديك للربيع رياضٌ   وبخدّي للدموع غديرُ

في هذين البيتين صنعةٌ ، ومعنى مألوف ، لكن فيها جمال موسيقى ، وحلاوة تعبير ، لكنّ القطعة التالية رائعة مُرقصة :

لا وحُبّيكَ لا اصافح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استراح وإن كان موجعا

كبدي في هواكَ أسقم من أن تقطعا

لم تَدعْ سورة الضنى فيَّ للسقم موضعا

ومن القصائد التي اختلط فيها ما له بما لأبي نواس مشتبهاً ، قصيدة « أيا من طرفه سِحرُ » فقد رواها ابن خلكان للحسين ، وجاءت في ديوان ابي نواس مختلفة بعض الشيء ، اذ تغيّر الشطر الثاني من (ومن ريقته خمر للحسين) الى (ومن مبسمه درٌّ لأبي نواس) ولكن الابيات الثلاثة الباقية هي نفسها في الموضعين ، غير ان الديوان زاد **اربعة** ابيات على القطعة فصارت **ثمانية** ، والزيادة اضعفُ من جميع الوجوه ، من الاصل ، فهي امّا أن تكون من زيادة الرواة عن قصدٍ او غير قصد ، او من تزيّد أبي نواس نفسه ، معتقداً أن ابا نواس اذا زاد ، فانه لا يقل عن الاصل بحال ، إن لم يَفُقْ ، مع هذا فانني اشمُّ رائحة الحسين في الابيات الاولى الاربعة الرئيسية ، إذ أنَّ للحسين اذناً موسيقيّة مرهفة ، وإحساساً فنيّاً بالوزن ، والكلمة ، والحرف ، يكاد يكون منقطع النظير لولا قلة ما له من الشعر ، وعدم تعدّد نواحيه ، زيادة على ذلك فالقصيدة خاليةٌ من **ألفاظ ابي نواس الغلامية** ، والحسين على كل حال اقل من أبي نواس فحشاً ، لكنه يُساويه ظرفاً ، ولم يتبذل للعامة والشُّطّار مثله ، بل كان محافظاً على صلته بالطبقة العليا ، كالمهدي ، والامين ، وصالح ، وعيسى اولاد الرشيد ، وكان من اخص ندماء المتوكل وله معه احاديث ممتعة رواها ابن رشيق ، واذا كان النواسي مولعاً بالعبث

بالدين ، والاخلاق ، واللغـة ، ليغيظ النحويين ، فان الحسين بقي محافظاً ، إرضاء لأبناء القصور ، لكنه شُهر بحب « يُسر » غلام صالح بن الرشيد وله فيه قصيدة ميمية من اجـود الشعر العربي :

قد غابَ لا آبَ من يراقبنا ونام لا قام سامر الخدم

الى ان يقول :

ما ليقيني بالشكّ ممتزجٌ حتى كأني اراه في حُلُم
أمسحُ عيني مستثبتاً نظري أخالني نائمـــاً ولم أنم

القصيدة على طولهـا ، مثلٌ مختارٌ للكلام الأنيق ، والمعنى الشريف ، والعذوبة الآخذة باللُّبّ ، والنغم الطافح في القصيدة كلهـا ، خاصـةً في البيت الاول بين (غاب ، آب) ، وبين (**نام ، قام**) .

مسلم بن الوليد : لُقّب مسلم « بصريع الغواني » لقوله :

سأنقادُ للـّـذّات متّبـع القنا
لأمضيَ همّاً أو أصيب فتىً مثلي

هل العيش الا أن تروحَ مع الصبا
صريع حميّا الكأس والاعين النُّجل

وقال :

« صريعُ غوانٍ » راقهنّ وَرُقْنَهُ
لدن شبّ، حتى ابيضّ سود الذوائب

وهو اول من اشاع البديع في الشعر .

وقال عنه الحصري : ومسلم اول من لطّف البديع ، وكسا المعاني حلل اللفظ الرفيع، وعليه يعوّل الطائيُّ «ابو تمام» وعلى ابي نواس . ومن اطيب معانيه الشعرية قوله :

فغطّت بايديها ثمار نحورها
كأيدي الاسارى اثقلتها الجوامعُ

فهذه صورة فوتوغرافيةٌ فاتنة . يحكى انه فاجأها وهي متكشفة ، فغطت نهديها بيديها مشتبكتين ، اشتباك يدي الاسير مقيدتين ، ومن الطف تعبيراته عن النهدين قوله «ثمار النحور».

لكن مسلماً اتخذ البديع غايةً ، بعد أن كان وسيلة الى الجمال الفني ، فهو ظاهر التكلف والصنعة ، ولكنه موازٍ لابي نواس في الثقافة ، ويقل عنه شذوذاً ، وختم حياته بالوظيفة كما ختمها النواسي بالزهد ، ومن شعره قوله :

فشكواي تؤذيها ، وصبري يسوءها
وتجزع من بعدي ، وتنفر من قربي

فيا قوم هـل من حيلةٍ تعرفونها
اشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

نعم ، الحيلة يا صريع الغواني ان لا تقول فيها شعراً كهذا لضعفه ولأنها مجنونة .

مطيع بن اياس : مطيعُ الكناني ، ابن شاعر ، وهو من مخضرمي الدولتين ، ليس من الفحـول ، ولكنـه يُقرن بأبي نواس في الظرف والمجون وحلاوة العشرة ، والتحرر ، قيل فيه : « لا تسأل عن رجلٍ اذا حضر ملكك ، واذا غاب عنك شاقك ، واذا عُرفتَ بصحبته فضحك » .

كان مطيع « ريحانـة الندمان » كما قـال عنه ابو نواس ، كثيراً ما تختلط اخباره باخبار ابي نواس ، وكذلك اشعارهما ، كقصته مـع يحيى بن زياد والجـارية ، وكالقصيدة النونية التي رواها ابو الفرج لمطيع :

لمّا خرجن من الرصافة كالـتماثيل الحسانِ
يحففْنَ احور كالغزال يميس في جدل العنانِ

ورواها الديوان لابي نواس « اقبلن » بدلاً من « لما خرجن » ويتفقان في الشطر الثاني من البيت الاول ، وفي الشطر الاول من البيت الثاني ، كما يتفقان بمعنى الشطر الثاني من البيت الثاني « أمر إمرار العنان » .

واما باقي قصيدة ابي نواس فرائع المعنى ، محبوك النسج ، يختمها بصرخةٍ شاكيةٍ ، يائسة ، هلوعة ، داعياً — كعادته — الى اللهو ، ونسيان الهموم ، واما باقي قصيدة مطيع فمخنث ركيك « يا طول حر صبابتي » « ويلي على تلك الشمائل » فهو لا ينهض قبالة ابي نواس بحال .

وقد عرض له الاغاني عدة مقطوعات اكثرها قصير الوزن (مستفعلن مستفعلن) . ومن اشهر ما له واجوده ، قصيدته في ابنة الدهقان جاريته لما باعها ، وندم ، وشكا وتحرّق ، وهي معروفة بالشعر العربي بعنوان « نخلتي حلوان » ولها صيت ذائع عند الخلفاء كالرشيد والمأمون، وهي من ارق ما يُروى في باب الاشواق ، وأنا لا اذكر هذه القصيدة الا تداعت في ذهني ابيات عبد الرحمن الداخل في النخل :

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةٌ ...

فلهذا الشجر تأثير في النفس يحركها بتهدل اغصانه كأنه فيلسوف الشجر .

تكاد تكون هذه القصيدة فريدته لما فيها من عناصر الانسانية السامية :

إن تكن ودّعت فقد تركت بي لهباً في الضمير ليس بوانِ
كحريق الضرام في قصب الغاب رمته ريحان تختلفانِ

التعبير **بالضمير وبالريحين تختلفان** أغلى ما في جوّ القصيدة الشعري ، على أن النواسي اذا تفوق على مطيع في الشهرة ، والشاعرية ، والزندقة ، فإنّ مطيعاً يفوقه سلامة نفس ، وظرف روح .

الفضل الرقاشي : كان مطبوعاً ، سهل الشعر ، نقيّ الكلام ، عاشر النواسي ، وناقضه ، وهاجاه ، وكان منقطعاً الى البرامكة فاغنوه عما سواهم ، ثم كان وفياً لهم ، ولا يقاس بأبي نواس ، ولا بالحسين ، ولا بمطيع .

والبة بن الحباب : أقرب اصدقاء ابي نواس ، واساتذته الى نفسه ، كان وصافاً للغلمان والخمرة ، وشعره فيما عداهما ضعيف .

روى ابو الفرج عن ابن قتيبة أنّ الدعلجيّ غلام ابي نواس أنشده :

« يا شقيق النفس من حكم » وكان ابو نواس قد سكر فقال: « اخبرك بشيء على ان تكتمه ؟ » قلت « نعم » قال « أتدري من المعنيُّ بها ؟ » قلت « لا والله » قال « انا والله المعني بذلك » والشعر لوالبة ، وقد رواها الديوان لابي نواس ، وقد رجعت الى ابن قتيبة فوجدت أن الدعلجي يرويها لوالبة ، اذن ما بقي من الحديث انما هو من زيادة ابي الفرج .

الظاهر أنّ فيها من نظم الرجلين شأن اكثر القصائد المضطربة بينه وبين غيره من الشعراء .

قيل إنّ اول امر النواسي معه ، كان بسبب زيارة والبة قريبه في الأهواز ، وكان والياً للمنصور ، فألفى عنده ابا نواس ، وهو امرد ، فصحبه ...

ومما اختلط من شعرهما بيتان من قصيدةٍ لوالبة :

ولها ولا ذنب لها حُبٌ كأطراف الرماحِ
في القلب يقدح والحشا فالقلب مجروح النواحي

وفي ابن منظور :

جرحت فؤادك بالهوى فالقلب . .
واما الديوان فقد ذكرهما في جنان كما يلي :

ولها ولا ذنب لها لحظٌ كأطراف الرماح
في القلب يجرح دائماً فالقلب . . . .

ثم إن كلمتي « دائماً » عند النواسي ، و « الحشا » عند والبة ، ليستا مطمئنتين في موضعهما ، فهما ضعيفتان ، ولا لوم على ابي نواس اذا اغار على استاذه فقد كانا كأنهما نفس واحدة ...

هذه القصيدة ضعيفةٌ ، غير منسجمة ، مبتورة في آخرها في ديوان ابي نواس ، واغلب الظن أنه لم يقل شيئاً منها مطلقاً ، فهي ليست في سويّة شعره بحال .

العباس بن الاحنف : قال ياقوت عن العباس : إنه « شاعر مجيد رقيق ، اوقف شعره على الغزل » وقال الحصري : « كان من احسن خلق الله حديثاً ، وأحسنهم اذا حُدِّث سماعاً ، وامسكهم عن ملاحاةٍ اذا خولف ، وكان ظاهر النعمة ، حسن الهيئة » وبعد أن اطنب في وصفه قال : « ولم يكن هجّاءً ولا مدّاحاً ، كان يتنزه عن ذلك ، ويشبه من المتقدمين **عمر بن ابي ربيعة** »، وسئل عنه ابو نواس فقال: « هو ارق من الوهم، واحسن من الفهم » ، وكان ابو الهذيل العلاف المعتزلي اذا ذكر العباس ، لقّبه ورثاه لقوله :

« وضعتُ خدّي لأدنى من يُطيف بكم
حتى احتُقرتُ وما مثلي بمحتقر

اذا اردت سلوًّا كان ناصركم
قلبي وما انا من قلبي بمنتصر

فكثّروا او اقلوا من ملامكم
فكل ذلك محمولٌ على القدر »

الشطر الثاني من البيت الثالث ورد معناه في ديوان ابي نواس:

فإن عاتبتها فيه احالتني على القدر

على ان تشبيه « الحصريّ » للعباس بعمر بن ابي ربيعة محمولٌ على أنه اوقف شعره على الغزل مثله فقط ، واما من ناحية

الروح فهو اقرب الى « جميل » منه الى « عمر » ، ومما روى له ياقوت قوله :

قلبي الى مـا ضرني داعي يكثر اشجاني واوجاعي
كيف احتراسي من عدوّي اذا كان عدوي بين اضلاعي !

ومن ارق ما روى له الحصري في زهر الآداب قصيدةٌ بائيّةٌ تعدُّ غايةً في الرقة ، ولطف المعنى ، إلا أنها منسوجة على منوال قصيدة بشار البائية ، فهما على وزن واحـد ، ورويٍّ واحـد ، استعمل « العباس » السيل الذي يعذب ماءُ إذا مر بقرب « فوز » كما استعمل « بشار » الريح التي تحمل طيب « عبده » على أنّ العباس أجاد اكثر من ابي نواس في الاغارة على قصيدة بشار البائية هذه .

« العباس » امتداد للعذريين ، في صحـة الهوى ، ورقة الوجدان ، لكنـه يفوقهم جمال اسلوب ، وانسجام معان ، ونعومة حضارة ، ولطف اختراع ، وهو على شيء من الميوعـة والضعف ، إزاء فحولة ابي نواس ، وتنوعه ، ومباهجه ، وله مساجلات مع ابي نواس عرضهـا جامع الديوان ، ولكن ما نُسي من معارضاتهما اكثر مما روي بكثير ، وكان من اخلص المقربين اليه ، بيد انه لم يشترك معه في المجون .

ابو العتاهية :

اسماعيل بن القاسم ؛ سمي بالعتاهية لانه كان اول امره

مخنثا يحب الشهوة والمجون . قال عنه ابن قتيبة « وغزله ضعيف مشاكلٌ لطبائع النساء » ، وقد كان ابو نواس يجلُّ ابا العتاهية ويقدره ، وكان ابو العتاهية يخشى ابا نواس ويجلُّه ، ويتوسل اليه أن لا يقول في الزهد لأنه من اختصاصه ، اتهمه ابن قتيبة بالزندقة ، وكان الناس يختلفون في تفضيل احدهما على الآخر ، روى له الحصري ما يلي :

« يا من تفرد بالجمال فما ترى
عيني على احدٍ سواه جمالا

اكثرتُ في قولي عليك من الرُّقى
وضربتُ في شعري لك الامثالا

بالله قولي إن سألتك واصدقي
ارأيت قتلي في الكتاب حلالا ؟

أم لا ففيم جفوتني وظلمتني
وجعلتني للعالمين مثالا ؟

كم لائمٍ لو كنت اسمع قوله
قد لامني ونهى وعدّ وقالا »

هذا الشعر في « عتبة » التي احبّها وشغف بها ، ولكن الرواة يزعمون انه كان يتصنّع ويتخلق باخلاق المحبين ليُذكر بذلك .

الحبُّ ليس مما يعابث الناس بـه بعضهم بعضاً ، فالحق أن « العتاهي » كان محبًّا ، ولكنـه كان ضعيف الشخصية ، بحيث لا تظهر رجولته وراء كلماته ، وإلا فالرجل مطبوعٌ على قول الشعر ، عالم باللغـة ، متمكن من الفن ، ذو حسٍّ رقيق ، وقصيدته حلوة النغم ، سهلة الالفاظ ، لينـة المقاطع ، تصلح للغناء ، ولكن البيتين الأولين فيها اقوى نسجاً ، وألطف معنىً ، والباقي مائعٌ طري ، واكثر شعره من هذا الطراز ، وقد بلغ من مهانته ورخصه ، أنه كان يتوسل ، **بالله** ، **وبالمهدي وبالرشيد** وبالمغنين ، ليرققوا قلبها عليـه ، ولكنها كانت تزداد منـه نفوراً وتحتقره .

وقد يطلب منها ان تعده بالوصل في العام المقبل ، فأين هو من فحولة النواسي ، والحسين ، وبشار ، وغيرهم ؟ على أنه يتفق مع النواسي من حيث الميل الى الالفاظ الواضحة ، والاوزان القصيرة ، الصالحة للغناء ، ولو كان الشعر بناء ، او فكرة ، او عاطفةً ، او خيالاً ، او موسيقية الفاظ وتراكيب ، وحدها ، لقارنّاه بالنواسي ، ولكن الشعر هـذه الاشياء التي ذكرتها ، ومعها شيء آخر له كل الاهمية ، ذلك هو **الشخص** الذي يعطي مقدار حيويته ، ونشاطه الروحي ، زيادة على تجربته الشعرية .

هـذا بالرغم من ان ابن رشيق يغتفر له وللعباس « الركاكة واللين المفرط » جرياً على مذهب من يؤثرون سهولة اللفظ ، كأن القضية قضية أمزجة الناس ، واستشهد معجباً بقوله :

« يا إخوتي إن الهوى قاتلي فيسروا الاكفان من عاجلِ
عيني على عتبة منهلّـةٌ بدمعها المنسكب السّائل
يا من رأى قبلي قتيلًا بكى من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفي نحوكم سائلًا ماذا تردون على السائل
إن لم تنيلوه فقولوا لـه قولاً جميلًا بدل النائل
او كنتم العام على عسرةٍ منـه فمنّوه الى قابل »

قال العمدة : « وقد اجتمع **النواسي ، والعتاهي ، والخليع ،** فاتفقوا على ان ينشد كل منهم شعراً في غير المدح والهجاء ، فلما بدأ العتاهي بهذه القصيدة امتنعا عن الانشاد إعجاباً بها » .

هنا ، آخذُ كلام « العمدة » على عواهنه ، مبيّناً ان القصيدة من حيث بناؤها رائعة الموسيقى ، غايةٌ في الانسجام التعبيري، لكنها من حيث الاحساس الشعري، رخيصةٌ فيها نفس «الخادم العبد » فقد اتخذ من الحبِّ معنىً تجاريًّا « عُسْرة» « دين » فاذا انت لم تدفعي يا عتبة هذا العام ، فلا بأس فهو يتساهل معـك دون فائدةٍ قانونية ، ولكن على ان تدفعي في العـام المقبل ، فهذا آخر مدى لك ، فهل هذا غزل ؟

واما بقية اجواء القصيدة فهي تتلخص كما يلي :

« يا اخوتي ان الهوى يقتلني ، فاعدوا اكفاني ، لانني دائم البكاء لهجران عتبة » وكان عليه ان يقدم معنى **البكاء** عـلى معنى

القتل للانسياق المنطقي الفنّي بخصوصهما .

واما البيت الثالث فهو مأخوذ المعنى من جميل بن معمر العذري القائل :

« خليليَّ فيما عشتما هــــل رأيتما
قتيلًا بكى من حب قاتله قبلي ؟ »

وبيت جميل ادق معنى ، واوضح عاطفة ، وله فضل السبق وهو كما يقول الاقدمون « أملأ للفم »، **والاستفهام** عند جميل الطف شعريًّا من **النداء** عند العتاهي، وموجة بيت جميل اقوى بينما هي عند العتاهي متهالكة مخنثة ، ثم يضع نفسه موضع **السائل** وهـذا فساد في الذوق الشعري والغرامي ، إذ ليس الحبُّ مما يتصدق به الناس بعضهم على بعض .

بعد هذا الاستعراض لاجمل قصائد العتاهي الغزلية ، تبين لنا ان كلام « الحصري » السابق، وكلام « الآمدي » في مقدمة « الموازنة » بين الطائيَّين القائل : « انه من الصعب الحــكم في تقديم احد الشاعرين العتاهي والنواسي على الآخر » ، بعد هذا يظهر الجور في المقارنة بينهما ، فأين هو من آفاق النواسي ؟

واذا فخر النواسيُّ على « صاحب التاج المحجّب في القصر » فهل من الخلق الانساني مقارنته بشاعر يكتب هذين البيتين الى احد الرؤساء وقد اهدى اليه نعلًا :

نعلٌ بعثت بها لتلبسها تسعى بها قدمٌ الى المجدِ
لو كان يحسن ان اشرّكها خدي جعلت شراكها خدي

ولم يعلم المسكين ان «لو» وهميّة وان اعصاب خده ليست علاقة جيدةً لنعل متينٍ ، بل انيق .

من ذلك ان العتاهي اهدى الى «المهدي» «برنيّةً صينيّة» فيها ثوبٌ مُعَطّر مكتوب عليه بالغالية :

نفسي بشيء من الدنيا معلّقةٌ
الله والقائم المهديُّ يكفيها

اني لأيأس منها ثم يطمعني
فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهمّ ان يدفع اليه «عتبة» فقالت : «يا امير المؤمنين، اتسلمني الى بائع جرار يتكسب بالشعر مع حرمتي وخدمتي ؟ » فبعث اليه المهديُّ ملءَ البرنيّةِ ذهباً وقال له : « اما عتبةُ فلا سبيل لك اليها . »

(نذكر قصة النواسي مع معشوق الغلامية للمقارنة)

يا عتب ما انت الا بدعة خُلقت
من غير طينٍ ، وخلقُ الناس من طينِ

اما الكثير فلا ارجوه منك ولو
اطمعتني في قليـل منك يكفيني

ما هذا الحب ؟ اراد ان يقلد جميلاً في قوله :

واني لأرضى من «بثينة » بالذي
لو ابصره الواشي لقرّت بلابله

فسخف وفسد .

الا يا عتبُ يا قمر الرصافه
ويا ذات الملاحة والنظافه

« النظافة » كلمة توجه لاحدى موظفات كنس الشوارع لا الى جارية في قصر اميرة .

اظل اذا رأيتك مستكيناً
كأنك قد بُعثت اليّ آفه

من اغرب الأشياء ، تشبيه المحبوب **بالآفة** .

وقيل انه احتال في زي ناسك ليقبّل يد « عتبة » ويا ليته قبل قدميها لكان أليق بسخيفٍ في حبه .

وذكر « صاحب مروج الذهب » أنه تعطّف الرشيد بشعر يكلم له « عتبة » علها ترضى عنه ، فلما فعل الرشيد ، قالت : « كل شيء لامير المؤمنين الا ابا العتاهية فقد حلفت لابيك المهدي على ذلك » فيئس العتاهي ، ولبس الصوف زهداً .

●

الغزل بعد ابي نواس

وبما استطعتُ أن أشير الى مركز ابي نواس بين شعراء الغزل الذين تقدموه ، ليجيء الحديث عنه التفاتَةً معجبة إلى موضعه في « القمة » بين عظماء هذا الفن، لا بالنسبة الى الماضي وحده ، بل إلى جميع عصور الغزل العربي ، وأن عمر بن ابي ربيعة صاحب مدرسةٍ بخصوصها ، كجميل بخصوصه ، يختلفان عنه اختلاف عصر بني العباس عن سابقه من شتى الجهات ، وأخصّ مظاهر الاختلاف « شخصيّةُ » أبي نواس ، وحياته ، بالنسبة الى « عمر وجميل » .

فالحياة ، **والتفكير** ، **والشعر** ، اشياء ثلاثة ليست شيئاً آخر غير أبي نواس ، لهذا كان عظيم الأثر في الذين تأخروا عنه ، نذكر منهم أبا تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، والمعري ، والصنوبري ، وكشاجم، والفارضي ، اذ قلّ أن يمر ناقد عربي بما أخذوه عنه دون الخوض فيه .

على أن اكثر الذين اخذوا عنه ، إنما اقتبسوا جزئياً ، إذْ يضمّن احدهم معنى بيتٍ من أبياته، فيمسخه او يقل عنه او يساويه،

إلا أن « كشاجم » و « الصنوبري » قلّداه في الطريقة ، فازدريا الوقوف على الأطلال ، وامعنا في وصف الرياض ، ومجالس الخمر ، وكذلك فعل « السّريّ الرفاء » معاصرهما ، والمقرب مثلهما من سيف الدولة ، واين هم من آفاق ابي نواس ، اذ أن التقليد عبوديةٌ رخيصة ، وقد كان للثورة على طريقة الاقدمين الملتفتين الى الاطلال قيمة في عهد ابي نواس ، لأن الشعراء كانوا ممعنين في المحافظة على القديم بينما لا محل لهذا في عهد « سيف الدولة » .

وقد حاولتُ أن اجد شاعراً غزلاً بعد ابي نواس ، عاش حياته العاطفيّة بحريةٍ وانطلاقٍ ، فلم افلح للاختلاف بينهم من جهة العصر والشخصية ، فشعر الحب وإن كان ظاهرة نفسية فردية ، فهو من جهة أخرى وليد الشخصية الاجتماعية ، يحتاج الى فحولة الفرد ، وعنفوان الجماعة ، لذلك كان شعر المخزومي عنوان الشباب ، وكان شعر النواسي عنوان النضج ، كما كان شعر جميل دلالةً على الوفاء والطهر ، وإعلاء الغريزة ، كما أن ابن الفارض الشاعر الغزلي الصوفي يمثل طور الهَرَم .

فالكندي ، والمخزومي ، وجميل ، وابو نواس ، والفارضي ، خلاصةٌ وافية تمثل أطوار الغزل العربي في عصوره المختلفة ، يظهر بينهم النواسي قمة الهرم ، في حريته العاطفية ، وتجربته الفنية ، وشعوره الخصب ، وثقافته المتنوعة ، وشخصيته المهيمنة ، على انني لا أنسى « الأندلس » التي كانت تلتفت الى « المشرق »

في اكثر شؤونها ، فقد عرفوا ابا نواس واخباره ونوادره .

وقد كان للقوم شعر في الغلمان والخمر والطبيعة ، ولكن واحداً منهم لم تحفل حياته الشعرية بالصدق ، والانطلاق كأبي نواس ، وما ابن زيدون الا صورة في غزله عن البحتري ، والشريف الرضي في حدودٍ لا تسمح بمقارنةٍ مع ابي نواس .

هنا يحق لي ان اقف لمحةً لألقي نظرةً على « الخيام » وغيره من كبار شعراء الفرس الذين عاشوا بعده ، لافتاً النظر الى أنّ مثل هذه اللمحة ضروريةٌ لما بين هؤلاء وابي نواس من توافق في الروح ، والموضوع، والحياة ، ولما يؤثر عن ابي نواس من محبته للفرس « بني الأحرار » وربما كان للوراثة بعض الأثر في ذلك الميل ، فهذا هو « الروذكي » اول شاعر فارسي غنائي لمع في عهد نصر الثاني (٩١٣ – ٩٤٢) داعياً الى فلسفةٍ في الحياة بعيدة عن الهم والغم ، ناضحة بالحبور ، مستوحاة من **حب النساء** ، **والخمر** ، **والغناء** ، رغم وصايا الاسلام .

ولا يعزبُ عن البال « حافظ » شاعر الفرس الأكبر المتوفى سنة ١٣٨٩ والذي تغنى – كأبي نواس – بمباهج **الشباب**، **والخمر**، **والغلمان** ، ساخراً كأبي نواس من الرياء ، والغلاظة ، والجهل ، مستخفّاً بقيم الحياة ، ناشداً اللذة بحرية وانطلاق .

واما « عمر الخيام » صاحب « الرباعيات » (المشهورة في آداب العالم ، والتي ترجمها الى العربية عدة ادباء منهم السباعي ،

ورامي، والنجفي) فهو يدعو فيها الى الاستمتاع بمباهج الحياة ، وفيها تحلُّ الخمرة ، والحبيبة المحل الأول إزاء الشكوك ، والقلق ، والتشوق الصوفي العميق .

موضوعات الخيام في الرباعية تكاد تكون في أصلها الذي تدور حوله ، نفس موضوعات النواسي إلا أنّ الخيام اعمق فكرة ، واقوى منطقاً ، وابعد مدًى في السخرية ، والشك ، « يُذيب آساس الاسلام في وحدة وجود صوفية » كما يقول بروكلمن ، وقد اعتمدت على ترجمة الصافي النجفي لرباعياته ، وقابلت كثيراً من معاني الرجلين فوجدتها متقاربة ، وليس بين يديّ ما يُثبت أن الخيام اطلع على ابي نواس الا شيئان : **الاول** هذا التوافق في المذهب والحياة ، ومعاني الأبيات ، **والثاني** اطلاع الخيام اطلاعاً واسعاً على اللغة العربية وادبها ، فقد كنت نشرت في مجلة « الأديب » البيروتية سنة ١٩٤٧ مقالاً تحت عنوان « ساعةَ استعرب الخيام » عرضت فيه بعض قصائد له في العربية نظمها في غير موضوعات اللهو .

ومن جملة ما عرض لي عند مقابلة معاني **الخيام** بمعاني **النواسي** أنني وجدت تلاقيهما في أكثر من خمسين موضعاً ، وهذا لا يأتي صدفةً ، عالماً أن مثل النواسي على سبقه الخيام في الوجود، قد كان اشهر من أن ينوه **به وبمذهبه** في العالم الاسلامي المترامي الأطراف .

انتهى

الفهرس



٥٤/١٢/٧٦

المجموعة القصصية

مختارات من روائع القصة العالمية

ق . ل

- قصص مختارة من الأدب **الروسي** ترجمة : نجاتي صدقي ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الصيني** ترجمة : نجاتي صدقي ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الفرنسي** ترجمة : سهيل ايوب ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الهندي** ترجمة : محمد عيتاني ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الاسباني** ترجمة : نجاتي صدقي ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الفارسي** ترجمة : محمد رشدان ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **السكندنافي** ترجمة : سمير شيخاني ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الالماني** ترجمة : سهيل ايوب ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الانكليزي** تحت الطبع ١٠٠
- قصص مختارة من الادب **الايطالي** تحت الطبع ١٠٠



المجموعة الادبية

ظهر منها

١ - رسائل جبران	جبران خليل جبران
٢ - رسائل مي	مي زيادة
٣ - ظلمات واشعة	مي زيادة
٤ - مع القافلة	حسين مروة
٥ - ازاهير حلم	مي زيادة
٦ - مي في حياتها المضطربة	جميل جبر
٧ - غزل ابي نواس	الدكتور علي شلق